الليالي البيضاء والقلب الواهن

الليالي البيضاء والقلب الواهن (روايتان)

ديستويفسكي

ترجمة: د.نـظـمي لوقــا

الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور - الهرم – الجيزة - مصر

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

ديستويفسكي. - ترجمة: د.نـظـمي لوقــا - الليالي البيضاء والقلب الواهن

- الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

١٧٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٨ – ٨٦٣٢١ – ٩٧٧ - ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٣٩٩ / ٢٠٢٢

ديستويفسكي

الليالي البيضاء والقلب الواهن

روايتان

ترجمة

د.نظمي لوقا

مقدمة

في هذا المجلد روايتان قصيرتان لفيدور ديستويفسكي، هما:

الليالي البيضاء

وهي من قصص فترة شباب المؤلف، وفيها يصور بشاعرية فذة الحياة في مدينة بطرسبرج، وعلى الخصوص في بعض أحيائها الغريبة، حيث لا تكاد تعرف الشمس التي تشرق على سائر بقاع المدينة طريقها إلى تلك المواضع المنزوية، على حد تعبيره، بل تشرق عليها شمس من نوع خاص أعدت من أجلها! فلا عجب تكون الحياة هناك مختلفة تمامًا عن الحياة في أي مكان آخر من تلك المدينة الجبارة. فهي حياة أشبه بالأسطورة، أو الحلم الذي يختلط فيه الواقع بالمثاليات! ...وفي هذا الجو الغريب تدور المأساة التي لابد أن تنتهي إليها أحلام الشباب المطحونين، تحت سنابك الواقع الذي لا يرحم في خاتمة المطاف.

القلب الواهن

وهي قصة أخرى تحكي عن الأحلام الجميلة الرقيقة، والمتواضعة كل التواضع في الظاهر، لدي شابين زميلين متحابين، يعيشان في المدينة الكبيرة حياة الفاقة المتعففة، وكأنهما كلما بحثا عن السعادة كانا كمن يحاولان القبض على شعاع الشمس. وكم يستولي عليهما الحياء! والروائي العظيم بتعقب كل خلجة في «القلب الواهن»، فإذا بالقارئ يعايش تلك الأحاسيس النبيلة المتواضعة، ويأسى لها... إنه قلب فتاة بسيطة ساذجة صافية النفس أحبها أحدهما. تحاول هي الأخرى أن تقبض على شعاع الشمس.. وعندما يخيب رجاؤها توهم نفسها أنها استطاعت أن تضم قبضتها على الشعاع الذهبي، ولكنها في النهاية لا تستطيع الاستمرار في الوهم، وينفطر قلبها الراهن.

الليالي البيضاء

.. أو لعله لم يولد إلا ليقيم،

ولو لساعة واحدة عابرة،

في خواطر حبك!

تورجنيف

الليلة الأولى

كانت ليلة جميلة، ليلة لا يتسنى لنا أن نعرف مثيلتها إلا عندما نكون في بواكير الشباب، أيها القارئ العزيز. فالسماء كانت مزدحمة بالنجوم، وصافية كانت غاية ما يكون الصفاء، حتى أنك ما أن تنظر إليها حتى لا تتمالك نفسك من التساؤل:

- كيف يمكن أن يعيش تحت مثل هذه السماء أناس من ذوي الجهامة أو النزوات الغريبة؟

وهو سؤال ينم على غرارة شباب وبراءته أيضًا أيها القارئ الرقيق، ولكني أدعو الله أن يشغل قلبك بمثل هذا السؤال في كثير من الأحيان.

وما دام قد خطر ببالنا التساؤل عن ذوي الجهامة والغرابة من الناس، فلا مفر من أن أتذكر سلوكي النموذجي طيلة ذلك اليوم. فمنذ الصباح وأنا فريسة للكآبة الغريبة. وفجأة خيل إليَ أن جميع الناس قد تخلوا عني في وحدتي، ونبذوني.

وكان من العدل طبعًا أن يقال لي: ومن هم جميع الناس الذين عنيتهم؟ فقد سلخت ثمانية أعوام متيمًا في بطرسبرج، لم أوفق خلالها إلى عقد صداقات تستحق الذكر.

ولكن لماذا كان ينبغي أن أصادق أحدًا بالذات؟ فالواقع إني أصادق كل بطرسبرج. وهذا هو السبب في أنني -عندما حزم الجميع أمتعتهم فجأة وغادروا المدينة إلى الريف- تخيلت أن كل إنسان قد هجرني وتخلى عني.

لقد أفزعني أن يتركوني وحدي، وظللت ثلاثة أيام متوالية بطولها أذرع الشوارع في إبتئاس عميق، عاجزًا عن فهم ماذا حدث لي. وقد أذهب إلى جادة نيفسكي، أو إلى الحديقة الكبرى، أو أتسكع على أرصفة الميناء، وأينما ذهبت كنت أفتقد رؤية الناس الذين تعودت أن أراهم وأقابلهم في نفس هذا المكان وفي نفس هذه الساعة على مدى العام.

إنهم طبعًا لا يعرفونني، أما أنا فأعرفهم، أعرفهم جيدًا. وقد درست وجوههم، وأبتهج بهم عندما أراهم مبتهجين، وأغدو حزينًا مكتئبًا عندما أراهم عابسين واجمين.

وكدت أصادق شيخًا إستمر إلتقائي به مصادفة في نفس المكان وفي نفس الساعة كل يوم. وهو ذو محيا وقور تظهر عليه إمارات التفكر، دائم الهمس لنفسه بكلام غير مسموع، دائم الإشارة بيسراه، أما يمناه فتحمل عصا للسير طويلة كثيرة العقد. ولها مقبض من الذهب. وقد لاحظ وجودي أيضًا، وبدا عليه إهتمام صادق بي. وأنا واثق بأنه كان خليقًا أن يشعر بإحباط إن لم يصادفني في طريقه. في نفس الموضع وفي نفس الساعة من أي يوم من الأيام. وهذا هو السبب في أننا كدنا نتبادل التحية أحيانًا، ولا سيما عندما يكون كلانا في حالة نفسية منشرحة.

ومنذ عدة أيام، إلتقينا بعد إفتقاد طال يومين كاملين، فكنا على وشك أن يرفع كل منا قبعته للآخر، ولكننا لحسن الحظ تمالكنا نفسينا في الوقت المناسب، وأنزلنا أيدينا. ومر كل منا بالآخر، وفي قلبه تعاطف صامت.

ولي صداقات مع البيوت أيضًا. فعندما أسير في الشارع تبدو جميعها وكأنها تخطو إلى الأمام، وتكاد تكلمني، محدقة فيَ بكل نوافذها، قائلة:

- كيف حالك؟ أنا أيضًا على ما يرام. وسيضاف إلى طابق جديد في شهر مايو.

أو..

- كيف حالك؟ ستبدأ عملية ترميمي غدًا.

أو..

- كدت أحترق، وأصابني من جراء هذا فزع شديد.

وما إلى هذا القبيل من الأحاديث. ولي من بينها أبنية أثيرة، ومن بينها أصدقاء حميمون. وسيعالج أحدها لدى معماري في غضون هذا الصيف، وسأحرص على القدوم إلى هنا كل يوم لأتحقق من أنه لم يصب بسوء..

ولكني لن أنسى ما حييت ما حدث لبيت صغير جميل جدًا، لونه وردي شاحب، وهو بيت في غاية الظرف، كان يبتسم لي كل يوم بمودة شديدة، وينظر بإستعلاء شديد إلى جيرانه القباح، حتى أن قلبي كان يرقص فرحًا كلما مررت أمامه. ثم حدث في الأسبوع الماضي أن سمعت فجأة وأنا قادم نحوه صرخة جزع:

- إنهم يطلونني باللون الأصفر!

ونظرت إلى صديقي العزيز. يا للوحوش! يا للبرابرة! إنهم لم يبقوا منه على شيء، حتى الأعمدة، حتى الكرانيش، وهكذا صار صديقي أصفر اللون كعصفور الكنار. وكادت تصيبني نوبة الصفراء. ولم أزل إلى اليوم لا يطاوعني قلبي على المرور من هناك حتى لا تقع عيني على صديقي المسكين المشوه.

وهكذا ترى أيها القارئ العزيز أنني أصادق مدينة بطرسبرج بأسرها.

وقد قلت آنفًا أنني كنت أشعر بالثبوط والإكتئاب، وقد لازمتني هذه الحالة النفسية ثلاثة أيام كاملة قبل أن أدرك السبب فيها. كنت أشعر بعدم الإرتياح وأنا خارج البيت (فهذا الشخص ليس هناك. وهذا الآخر لا أراه، وماذا يمكن أن يكون حدث لفلان؟») وفي البيت شعرت بالقلق أيضًا. وظللت أنبش ذهني ليلتين على التوالي، ما الذي ينقص مسكني؟ لماذا أجده غير مرحب بي؟ وبحثًا عن الجواب، تلفت حولي إلى الجدران الخضراء القذرة، وإلى السقف الذي تتدلى منه خيوط العنكبوت، التي تتركها ماتريونا تتكاثر فيه بغزارة، وفحصت كل الأثاث الذي لديَ، محدقًا في كل مقعد،

ظنًا مني أن سر هذه المتاعب كلها يكمن هناك، لأنني أمرؤ إذا رأى كرسيًا في غير موضعه الذي كان فيه في اليوم السابق إستولى عليه القلق، ونظرت إلى النافذة أيضًا، ولكن عقلي لم يعرف الراحة! بل وعن لي أن أستدعي ماتريونا وأوبخها أبويًا بسبب خيوط العنكبوت هذه، وبسبب عدم حرصها على الترتيب والنظافة بصورة عامة، بيد أنها نظرت إلى في دهشة، وغادرت الحجرة من غير أن تنبس بكلمة واحدة. وهكذا ظلت خيوط العنكبوت مستقرة في مكانها إلى يومنا هذا.

وأخيرًا، في هذا الصباح فقط، عرفت جلية المسألة، وإن سبب حالتي هذه أن الجميع يفرون مني إلى الريف! وأستميحكم العفو لصدور هذا التعبير مني، ولكني كنت في حالة لا تسمح بتخير الألفاظ المنتقاة. فالحقيقة أن كل من يعيش في بطرسبرج أما يتأهب للذهاب إلى الريف. أو هو قد ذهب إلى الريف فعلًا. وصرت أرى في كل سيد ذي منظر محترم يركب عربة أجرة رب أسرة فرغ من عمله اليومي في المدينة، وأخذ أهبته للحاق بأسرته في الريف المحيط بها، وصار كل رجل ألقاه في الشارع ذا سحنة كأنها تقول لجميع المارة:

- نحن هنا بصفة عابرة، وفي مدى ساعتين سنكون غادرنا المدينة.

وإذا رأيت نافذة تنفرج مصاريعها عن أنامل نحيلة بيضاء سكرية تنقر على الزجاج أولًا، ثم تطل فتاة مليحة برأسها لتنادي بائع أصص الزهر، أتخيل على الفور أن هذه الأزهار ليست مطلوبة لتكون متعة من متع الربيع في مسكن من مساكن المدينة، بل لأن الجميع سيرحلون عما قليل إلى الريف، حاملين معهم أصص الأزهار.

وفضلًا عن هذا، كثيرا ما جبت ميدان مراقبتي الطريف، بحيث صار في إستطاعتي أن أقول - بلا خطأ- بناء على المظاهر البادية دون سواها، أين يقيم كل واحد ممن أراهم في فترة الصيف...

وكلما صادفت موكبًا طويلا من الحوذية سائرين في تكاسل، وأعنة الخيل في أيديهم بجوار عرباتهم المكدسة بالأثاث من كل صنف: موائد ومقاعد وآرائك تركية، وغير ذلك من حوائج المنزل، من فوق هذه الكومة طاهية معروقة تحرس في يقظة ممتلكات مولاها، أو صادفت السفن المحملة بالأثاث والأواني وهي تنساب على وجه نهر النيفا صوب الجزر، كانت العربات والزوارق تتكاثر في مخيلتي عشرات المرات أو مئاتها، حتى ليخيل إليَ أن كل شيء قد خف إلى الريف في قوافل لا نهاية لها، بحيث صارت بطرسبرج مهددة بالإقفار التام من أهلها.

وعندئذ شعرت بالخزي والاستياء والحزن، فليس هناك سبب يدعوني للذهاب إلى الريف، ولا مكان لي فيه، وكنت مستعدًا أن أمضي مع كل عربة نقل، أو زورق، ومع كل سيد محترم المظهر يكتري عربة ليستقلها، ولكن ما من أحد، ما من أحد على الإطلاق دعاني للذهاب معه. فكأنما صرت نسيًا منسيًا، أو كأنني فعلًا غريب عنهم تمام الغربة!.

وطفقت أسير مسافات طويلة في ذلك الإتجاه المفضي إلى الريف، حتى ضللت طريقي. ولم أعد أعرف أين أنا... وهو أمر مألوف لي على كل حال، إلى أن وجدت نفسي عند بوابة المدينة.

وفجأة أحسست بالبهجة، فتجاوزت الحاجز، ومشيت بين الحقول والراعي الخضراء، وأنا لا أشعر بإعياء، بل شعرت بكل كياني بأن عبئًا باهظًا أخذ يرتفع عن قلبي. وكل الراكبين في العربات الذين مروا بي كانوا يرمقونني بنظرات المودة، وكادوا يلقون عليَ التحية وكلهم كانوا -فيما يبدو- سعداء جدًا لسبب ما، وكان كل واحد منهم يدخن سيجارًا. وأنا أيضًا شعرت بالسعادة الغامرة كما لم أشعر بها من قبل. وكأنما وجدت نفسي فجأة في إيطاليا، فما كان أشد إلتحامي مع الطبيعة، أنا إبن المدينة نصف العليل، الذي كاد يختنق في شوارعها المسيجة بالجدران.

وثمة شيء مؤثر جدًا في الريف المحيط ببطرسبرج، حينما تعرض الطبيعة فجأة -مع مقدم الربيع، كل ما فيها من عنفوان، وكل ما زودتها به الطبيعة من بأس، فتتبرج بالأزهار الزاهية، فتذكرني عندئذ -لسبب ما- بفتاة صغيرة عليلة، مسلولة، كنت تنظر إليها بإشفاق شديد أحيانًا، وبإعزاز متقد أحيانًا أخرى، وتتجاهلها تمامًا في بعض الأوقات أيضًا، ولكنها فجأة، ولبرهة واحدة تتحول إلى صورة رائعة للحسن والجمال الباهر، فتسأل نفسك مسحورًا مذهولًا:

- ما الذي جعل هذه العيون الحزينة الأسيانة تتقد بمثل هذه النار؟ وما الذي جاء هذه الخدود الشاحبة الذابلة بكل هذه الحمرة؟ وما الذي نفخ العاطفة في هذه الملامح الرقيقة؟ ولماذا يرتفع صدرها الناهد وينخفض هكذا؟ ما الذي جلب القوة والحياة والجمال هكذا فجأة إلى محيا هذه الفتاة المسكينة، فتوهج بمثل هذه الإبتسامة المشرقة، وبمثل هذا الضحك الفوار؟.

وتتلفت حولك، وتتساءل، ثم بعد هذا تأخذ في الفهم. ولكن هذه البرهة الوجيزة من الجمال والإزدهار لا تلبث أن تنقضي، وقد تلتقي في الغداة يعين تلك النظرة الساهمة الفاترة الهمة، وعين ذلك الوجه الذابل، ونفس الإنقياد الخانع والإنطواء المتهيب، بل قد ترى الندم والأسف لإقدامها على الظهور بذلك المظهر الباهر في تلك اللحظة من لحظات الإلهام... فتحس الأسى لأن نضرة هذا الجمال الزاهر قد ذوت بمثل هذه السرعة، ولأن الومضة كانت خادعة، وتشعر بالأسف لأنه لم تتح لك فسحة من الوقت تحبها فيها...

ومع هذا، كانت ليلتي خيرًا من نهاري! وهذا ما حدث.

كان الوقت متأخرًا جدًا عندما عدت إلى المدينة. وكانت الساعة قد دقت العاشرة عندما إقتربت من بيتي. وطريقي على إمتداد شط القناة، حيث يندر أن تصادف إنسانًا في هذه الساعة من الليل. أجل إن مسكني يقع في أقصى بقعة من المدينة، وكنت أغني وأنا سائر، لأنه من عادتي أن أشدو أو أدندن عندما أكون سعيدًا، شأن أي إنسان سعيد ليس له أصدقاء، ولا معارف يشاركونه سعادته. وفجأة وقعت لي مغامرة غير متوقعة.

كانت امرأة واقفة لصق السياج على مسافة قريبة مني. ويبدو أنها كانت تحدق بإستغراق في مياه القناة المعتمة وهي منحنية على السياج. وعليها قلنسوة صفراء جميلة، وعباءة صغيرة جميلة، فقلت في نفسي:

- إنها فتاة حديثة السن، ولابد أنها سمراء!

ويبدو أنها لم تسمع وقع خطواتي، فلم تتحرك عندما مررت بها، بأنفاسي اللاهثة، وخفقات قلبي العالية، فقلت في نفسي:

- هذا شيء عجيب! لابد أنها غارقة في التفكير في شيء ما.

وفجأة تجمدت أوصالي ووقفت في مكاني، فقد خيل إليَ أني سمعت نشيجًا مكتومًا. أجل كنت على صواب. فالفتاة كانت تنتحب، وإرتفع نحيبها مرارًا. يا إلهي! وإنقبض قلبي، وبرغم تهيبي وخجلي مع النساء، أحسست مرارًا. إنني بإزاء حالة إستنشائية، فعدت أدراجي، وخطوت نحوها خطوة، وكنت خليقًا أن أصيح بها:

- سيدتي!

لولا إنني فطنت إلى أن هذه الصيحة بعينها تكررت آلاف المرات في جميع روايات المجتمع الراقي الروسية. وكان هذا الخاطر كافيًا كي أتمالك نفسي، وفيما أنا أنبش ذهني بحثًا عن كلمة استهلالية ملائمة، إستردت الفتاة صوابها، وتلفتت حولها، وإستجمعت شتاتها، وأسبلت جفنيها وتسللت مارة بي وهي مغضبة سائرة بإمتداد الشط.

وتبعتها على الفور. ولكنها عبرت الشارع عندما سمعتني، ومشت على الطوار في الجانب الآخر، ولم أجازف بعبور الشارع وراءها، وكان قلبي يرفرف كالطائر الحبيس، وعندئذ خفت الصدفة لنجدتي.

وفجأة رأيت سيدًا في ملابس السهرة، وقور السن وإن لم يكن وقور المشية، يظهر على الطوار قرب القناة. وكان يترنح في سيره، ويتشبث بالجدار حتى لا يقع على الأرض. فأسرعت الفتاة في سيرها خفيفة الخطو كأنها السهم المارق، على نحو ما تسير جميع الفتيات عندما لا يرون أن يصحبهن من يعرض عليهن المصاحبة حتى بيوتهن ليلًا.

وما كان السيد المترنح ليلحق بها بطبيعة الحال، لولا أن القدر الذي يرتب مصيري استحثه على الإلتجاء للوسائل القصوى. فرأيته فجأة، ومن غير أن يتفوه بكلمة واحدة، ينطلق مستجمعًا نفسه ليطاردها. وكانت الفتاة سريعة كالريح، ولكن السيد المرنح كان يقترب منها جادًا في أثرها، فصاحت القناة مستنجدة.

وإني لأحمد حسن طالعي على وجود عصاي الرائعة ذات العقد في يدي اليمنى، وفي ومضة عين كنت على الجانب الآخر من الشارع. وأدرك السيد المزعج اللحوح ما ينتظره مني، فأذعن لحجة عصاي المفحمة، وتراجع من غير أن ينطق بكلمة واحدة، إلا حينما صرنا بعيدين عنه جدًا، فأطلق عدة عبارات احتجاج عنيفة الألفاظ جدًا، وجهها عندي. ولكني لم أكد آبه لكلماته. وقلت للسيدة الشابة:

- إعطني يدك. ولن يجرؤ على التعرض لنا بعدها.

وفي صمت أعطتني يدها، التي لم تزل ترتجف من الفزع والاضطراب. آه أيها السيد المجهول! لكم باركتك ودعوت لك عندئذ

ونظرت إليها نظرة عابرة، فإذا هي سمراء شديدة الحلاوة! إذن صدق حدسي! وكانت أهدابها السوداء لم تزل مخضلة بالدمع، لما أصابها من الفزع، أو من أثر أحزانها، لست أدري. ولكن ابتسامة متألقة كانت ترف على شفتيها. واسترقت نظرة إليَ، وتضرج وجهها بالحمرة الخفيفة، وغضت بصرها. فقلت لها:

- ها أنت ترين أنه ما كان ينبغي لك أن تصديني في البداية، فلو كنت معك لما تعرضت لشيء.

- ولكني لم أكن أعرفك. ظننتك أنت أيضًا...

- وهل تعرفيني الآن؟

- قليلًا. والآن قل لي. في البداية، لماذا ترتجف؟

فأجبتها وأنا مبتهج لذكائها، وما أبدع أن يقترن الذكاء والجمال:

- لقد أصبت كبد الحقيقة! وأدركت على الفور نوع الرجل الذي معك. فالحقيقة إني هيوب مع النساء. وأعترف أنني مضطرب مثل اضطرابك منذ دقيقة عندما أفزعك هذا السيد... وأشعر بشيء من الفزع الآن. كأنني في حلم. بل إني في أحلامي لم أتخيل قط أن يأتي يوم أتحدث فيه إلى امراة.

- حقًا؟

- أجل. إن يدي ترتجف الآن لأنها لم تمسك بها قط من قبل يد في جمال يدك الصغيرة. لم أعد آلف النساء، أو على الأصح لم آلفهن قط من قبل. فأنا وحيد، ولست أعرف كيف أتحدث إليهن. بل لعلى في هذه اللحظة قلت لك شيئًا سخيفًا. إن كنت فعلت، صارحيني بهذا، وأؤكد لك إنني لن أستاء.

- كلا. بالعكس. ولكن ما دمت تلح عليَ أن أكون صريحة معك، فأنا أصارحك أن التهيب يروق النساء، وإن كنت تريد أن تعرف المزيد، قلت لك أنه يروقني أيضًا، ولن أصرفك قبل أن أبلغ داري.

فقلت لها وأنا مبهور الأنفاس من السعادة:

- ستجعلينني أتخلص من خجلي على الفور، وعندئذ وداعًا لكل ما أملكه من وسائل!

- وسائل؟ أي وسائل؟ هذا تعبير غير ظريف منك.

- سامحيني. لن أقوله مرة أخرى. كانت زلة لسان، ولكن أتظنين من الممكن ألا تراودني في لحظة كهذه أي رغبة في...

- في أن تكون مقبولًا، مستحبًا؟

- أجل. كوني رقيقة رحيمة بي، بحق السماء! فكري في أي مخلوق أنا.

فها أنا ذا، رجل في السادسة والعشرين، ولم أعرف أحدًا حتى الآن! فكيف يمكن أن أحسن الحديث بمهارة ولباقة؟ أنت أيضًا سترتاحين عندما يصير كل شيء واضحًا مكشوفًا. ولا أستطيع أن أظل صامتًا وقلبي يصيح في داخلي. لا بأس! أتصدقين إني لم أعرف أي امرأة على الإطلاق! وليست لي صديقة. وكل ما أصنعه أني أحلم بأن ألتقي يومًا ما في مكان ما بشخص ما. وليتك تعرفين كم مرة غرقت في الحب على هذا النحو.

- لكن كيف؟ ومع من؟

- مع لا أحد. مع مثل أعلى. مع أي واحدة أراها في أحلامي. وأشيد قصصًا بأكملها في أحلامي. فأنت لا تعرفينني! لقد التقيت في حياتي بالطبع بامرأتين أو ثلاث، ولكن أي نساء كن؟ كن سيدات بيوت لأقصى حد!.. وسأقص عليك شيئًا يجعلك تضحكين. كثيرًا ما فكرت في الدخول في حديث عرضي عابر مع سيدة أرستقراطية، أن أتفق وكانت وحدها في الشارع. سأحدثها بخجل وتهيب طبعًا. وباحترام ومرارة. سأقول لها أنني أكاد أموت من الوحدة. وأرجوها ألا تذروني وتقصيني عنها، فأنا عدمت الوسائل للتعرف بأي امرأة إطلاقًا. وسأجعلها تتبين من ضمن رسالتها كإمرأة أن تسمع شكاة رجل شقي مثلي، وكل ما أطلبه منها أن تقول لي كلمتي عطف أخويتين، وألا تقصيني على الفور، بل تصدق كلماتي وتصغي لما عندي. ولها أن تضحك مني إن شاءت، بشرط أن تترك لي بعض الأمل، وتقول لي بضع كلمات. كلمات قلائل، حتى ولو كنا لن نلتقي بعد ذلك! ولكني أراك تبتسمين... ولأجل هذا كنت أقول لك كل ما قلت...

- لا تضطرب. إنما كنت أبتسم لأن الخطأ خطأك إن كنت وحيدًا، لأنك إن حاولت فربما أفلحت، حتى ولو سنحت الفرصة في عرض الطريق. وكلما عالجت الأمر ببساطة، كان ذلك أفضل... فما من امرأة ذات قلب رقيق حنون يمكن أن تصرفك وتصدك عنها من غير أن تقول لك الكلمات القليلة التي ناشدتها أن تقولها لك بكل هذا التهيب، اللهم إلا إذا كانت غاضبة من شيء ما في تلك اللحظة.. ولكن ما هذا الذي أقوله؟ إنها طبعًا ستعدك مخبولًا. إنما كنت أحكم على الأمور قياسًا على نفسي. فما أقل من أساليب الناس في هذه الدنيا!

فصحت قائلًا:

- شكرًا لك! إنك لا تعرفين ما صنعته لي.

- على رسلك! والآن خبرني كيف عرفت أنني من طراز المرأة... المرأة التي تعدها جديرة باهتمامك وصداقتك... بالاختصار ليست «ست البيت» على حد تعبيرك. لماذا غامرت بالإقتراب مني؟

- لماذا؟ لكنك كنت بمفردك، وهذا السيد كان بالغ الجرأة، والوقت ليل، ومن واجب المرء..

- كلا. كلا. قبل هذا كله. ونحن على الطوار الآخر. لقد فكرت أن تقترب مني عندئذ. أليس كذلك؟

- هناك، على الجانب الآخر؟ ولكني لا أعرف كيف أوضح لك... لقد كنت سعيدًا اليوم، ومشيت أغني، وبرزت إلى خارج المدينة. ولم أعرف قط من قبل لحظات سعادة كهذه. وأنت -اغفري لي فربما كان هذا توهمًا مني- حسبتك تبكين. سامحيني إن كنت أذكرك الآن بما كان يحزنك. ولم أستطع أن أتحمل هذا، وتوجع قلبي، وحزنت لأجلك. وهذا مسموح به. وليس التعاطف الأخوي إثمًا. أليس كذلك؟ إغفري لي إني إستعملت لفظ التعاطف أو الشفقة. ولكن هل ساءتك رغبتي في الدنو منك عندئذ؟

فقالت، وهي تضغط على يدي:

- كفي. لا تقل شيئًا. إنها غلطتي أنا. أنا التي جلبت هذا على نفسي. ولكني مسرورة لأن فراستي فيك لم تخطئ.. والآن، ها نحن قد وصلنا. ولابد لي أن أدخل هذا الزقاق، خطوة هي أو خطوتان. وداعًا. وشكرا لك.

- أيمكن أن يكون معنى هذا إننا لن نلتقي مرة أخرى؟ أهذا ختام كل شيء؟

فضحكت الفتاة وقالت:

- أرأيت.. في البداية كان كل ما تريده بضع كلمات، والآن... ومع هذا لن أقول شيئًا. ولعلنا نتقابل مرة أخرى.

فقلت لها:

- سأكون هنا غدًا. وسامحيني، فها أنذا بدأت الإلحاح.

- أجل. أنت نافد الصبر. نافد الصبر أكثر مما يجب.

فانفجرت قائلًا:

- إصغي لي. أرجوك... وسامحيني إن قلت لك مرة أخرى شيئًا لا ينبغي أن يقال... ولكن هذا هو الحال معي. لابد أن آتي غدًا إلى هنا. أنا حالم. وحياتي الواقعية قليلة جدًا، ومثل هذه اللحظات لا تواتيني إلا نادرًا جدًا، بحيث لا يسعني إلا أن أعيشها مرارًا وتكرارًا في أحلامي. وسأحلم بك طول الليل. سأحلم بك أسبوعًا كاملًا. بل عامًا بأسره. وسآتي إلى هنا غدًا بكل تأكيد. إلى هذه البقعة بالذات، في مثل هذه الساعة بالضبط. وسيسعدني أن أستعيد اليوم السابق. لقد صارت هذه البقعة عزيزة على نفسي فعلًا. وثمة بقعتان أو ثلاث على هذه الشاكلة في بطرسبرج وذات مرة حملتني ذكرياتي على البكاء، مثلك.. ومن يدري، فلعلك أنت أيضًا كنت تبكين بسبب ذكرياتك منذ برهة وجيزة. ولكني أرجوك أن تسامحيني، فقد نسيت نفسي مرة أخرى. ولعلك كنت يومًا ما سعيدة جدًا هنا.

فقالت الفتاة:

- حسن جدًا. أظنني سآتي إلى هنا غدًا، في العاشرة مساء. وأحسبني لا أستطيع منعك من القدوم. المهم أنني سأكون هنا، ولكن إياك أن تظنني أواعدك على اللقاء. فأنا أنذرك منذ الآن إنني سأكون هنا لأسباب خاصة بي شخصيًا. هناك فقط شيء واحد .. ولابد أن أخبرك به صراحة، لن يسوءني أن تأتي أنت أيضًا. أولًا لأنه قد يحدث شيء سخيف كالذي حدث الليلة، ولكن هذا خارج الموضوع. خلاصة الكلام أنه سيسرني أن أراك. وأقول لك بضع كلمات. ولكنك لن تسيء الحكم على الآن. أليس كذلك؟ ألن تظن بي أني أمنح المواعيد بسخاء أكثر مما ينبغي؟ ما كنت لأعطي هذا الموعد لولا... ولكن دع هذا سرًا خاصًا بي. ولكن بشرط!

- بشرط؟ قوليه الآن. أنا مستعد لقبول أي شرط. وسأنفذه بكل أمانة!

قلتها بنشوة فرح لا يوصف. فقالت الفتاة ضاحكة:

- لأنني أعرفك الآن وأثق بك، دعوتك للحضور غدًا. ولكن بشرط (وأقولها لك بصراحة تامة) ألا تقع في غرامي. أؤكد لك أنك ينبغي ألا تقع في حبي. وأنا مستعدة أكون صديقك، وهاك يدي، ولكن أرجو ألا تقع في حبي.

فصحت وأنا أشد على يدها:

- أقسم على هذا!

- لا تقسم! أنا اعرف أنك سريع الاشتعال كالبارود. ألا يسوءك أن أقول لك هذا؟ آه لو تعلم... أنا أيضًا ليس لي من أتحدث إليه، ولا من ينصحني. والشارع -طبعًا- ليس المكان الذي يبحث فيه المرء عن النصحاء. ولكنك استثناء. وأشعر أني أعرفك تمامًا، كأننا أصدقاء منذ عشرين سنة. إنك لن تخل بوعدك. أليس كذلك؟

- سترين. ولكني الآن لا أعرف كيف أظل حيًا هذه الساعات التي تفصلني عن موعد الغد.

- نم نومًا عميقًا. هذه هي الطريقة المثلى. طابت ليلتك، وتذكر أنني وضعت ثقتي فيك. لكم أحسنت القول عندما قلت إن كل شعور، حتى العطف الأخوي، لا يمكن تفسيره! أتدري أنك حين قلت هذا أوحيت لي الثقة بك، وأن أفضي لك.

- بحق السماء، تفضين بماذا؟

- حتى الغد! ليبق هذا سرًا خافيًا حتى ذلك الحين. وهذا أفضل لك كثيرًا. فسيبدو لك هذا وكأنه شيء رومانسي، ولو بالخيال. ولعلي أخبرك بكل شيء غدًا، أو لا أخبرك. سأتحدث إليك أولًا، كي يعرف كل منا صاحبه بصورة أفضل.

- أوه. نعم! وأنا سأخبرك بكل شيء عن نفسي غدًا. ولكن ما هذا؟ كأنما تحدث لي معجزة... أين أنا يا ربي؟ قولي لي أنك لا يمكن أن تكوني مستاءة، لأنك لم تغضبي كما كان من الممكن أن يغضب أي إنسان آخر في موضعك، ويقصيني منذ البداية. دقيقتان فقط كانتا كافيتين لإسعادي إلى الأبد! نعم سعيد أنا! من يدري؟ لعلك أصلحت بيني وبين نفسي، وبددت شكوكي. ولعلي فريسة نوبات من هذا النوع. سأقول لك كل شيء غدًا. وستعرفين كل شيء. كل شيء.

- عظيم جدًا. وستكون أنت البادئ.

- إذا شئت.

- الي اللقاء.

- إلى اللقاء.

ولما افترقنا، لبثت أمشي على قدمي في الشوارع طول الليل، ولم أستطع أن أحمل نفسي على العودة إلى البيت.

كنت سعيدًا جدًا..

وإلى الغد...

الليلة الثانية

قالت لي ضاحكة، وهي تهز يدي كلتيهما:

- ها أنت ترى، إنك عشت!

- أنا هنا منذ ساعتين، ولا يمكنك أن تتخيلي أي يوم كان هذا اليوم بالنسبة لي!

- بل يمكنني. يمكنني... ولكن لندخل في الموضوع. أتعرف لماذا أنا هنا؟ لم آت كي أثرثر حول موضوعات تافهة على نحو ما صنعنا الليلة البارحة، والآن علينا أن نكون مستقبلًا أعقل من ذي قبل. وقد فكرت في هذا كله لوقت طويل، الليلة الماضية.

- ولكن ماذا تقصدين بأن تكون أعقل؟ ومن أي ناحية. أنا من جهتي على استعداد، ولكن ما يحدث لي الآن أعقل وأحكم شيء حدث لي على الإطلاق في حياتي كلها!.

- حقًا؟ أولًا أطلب إليك ألا تسحق يدي هكذا، وأريد منك ثانيًا أن تعرف أنني تساءلت عنك كثيرًا هذا اليوم.

- عظيم. وإلام ا نتهيت؟

- إلام إنتهيت؟ إنتهيت إلى أننا يجب أن نبدأ من البداية: فقد أدركت هذا الصباح إني لا أكاد أعرفك، وإنني تصرفت بالأمس تصرف طفلة، تصرف فتاة حمقاء، وطبعًا كان الخطأ خطأ قلبي الحنون. وبمعنى آخر انتهيت إلى إطراء تفسي، على نحو ما يصنع أي إنسان يشرع في تحليل أفعاله. ولكي أتلافى هذا الخطأ، قررت أن أكتشف كل شيء يتعلق بك، حتى أدق التفصيلات. ولما لم يكن هناك أحد يمكن أن أسأله، فلا مفر من أن تحدثني أنت شخصيًا بكل شيء عنك، وتفضي لي بكل أسرارك. والآن أي طراز من الناس أنت؟ أسرع وأجبني، وأقصص عليَ قصة حياتك.

فصحت فزعًا:

- قصتي,, ولكن من ذا قال لك أن لي قصة؟ لا قصة لي!

فقاطعتني ضاحكة:

- كيف عشت إذن، إن لم تكن لك قصة؟

- ليست لحياتي قصة على الإطلاق! لقد عشت وحدي ببساطة تامة، وحيدًا تمام الوحدة. وحيدًا جدًا. أتعرفين ما معنى «وحيد»؟

- ولكن كيف؟ أتريد أن تقول إنك لم تر أي إنسان، مجرد الرؤية؟

- لا. فأنا بالطبع أرى أناسًا، ولكني مع هذا وحيد.

- ألا تكلم أحدًا أبدًا؟

- بالمعنى الدقيق للكلمة... لا!

- ولكن أي نوع من الناس أنت؟ هلا وضحت لي هذا! إنتظر لحظة. أظنني أعرف: لعل لك جدة مثل جدتي. وهي عمياء، وقد مرت عصور وعصور منذ كان مسموحًا لي بالذهاب إلى أي مكان. وهكذا فقدت تقريبًا عادة الحديث. وذات مرة، منذ عامين، ارتكبت عملًا شريرًا، وعندئذ نالتني، وشبكت ثوبي في ثوبها بدبوس مزدوج. وعلى هذه الصورة كنا نجلس متشابكين الأثواب يومًا في أثر يوم، منذ ذلك الحين. وهي جالسة طول الوقت تحيك جوارب الصوف، برغم عماها، وعلي أن أجلس بجوارها أحيك الملابس أو أقرأ لها بصوت عال. ويا لها من عادة غريبة، أن تربط إنسانًا بها من طرف ثوبه سنتين كاملتين.

- يا إلهي! يا لها من محنة! ليست لي جدة على هذا النحو.

- إن لم تكن لك جدة على هذا النحو، فما الذي يبقيك باستمرار في البيت؟

- إسمعي. أتريدين أن تعرفي من أنا؟

- طبعا أريد.

- بالمعنى الدقيق.

- بأدق معنى ممكن.

- وهو كذلك.. أنا «نمط».

- نمط؟ أي نوع من الأنماط؟

وانفجرت الفتاة ضاحكة بمرح شديد، حتى ليحسب المرء أنه لم تسنح لها فرصة للضحك على مدى عام كامل، ثم استطردت:

ـ كم أنت مضحك! أرى مقعدًا هناك، فهيا بنا نجلس، ولا أحد يأتي إلى هنا، فلن يسمعنا أحد، والآن إبدأ في قصتك، لأن لك قصة. أيًا كان ما يمكن أن تقوله، فهي سر تبوح به، وإشرح لي أولًا ما معنى «نمط»؟.

فأجبتها، مندمجًا معها في ضحكتها الطفلى.

- النمط.. إنه شخص غريب الأطوار، مضحك بعض الشيء، وله طبع خاص به. اسمعي أتعرفين الحالم؟

- الحالم.. يا إلهي، ومن الذي لا يعرفه؟ أنا نفسي حالمه، فعندما أجلس بجوار جدتي، تطرأ على ذهني أشياء غريبة جدًا في بعض الأحيان. وعندئذ أبدأ في نسج الأحلام، فتحملني أحلامي الي بعيد، فأكاد أرى نفسي أتزوج أميرًا صينيًا! وحسنا أن يكون المرء حالمًا أحيانًا. بل كلا! ليس هذا حسنًا. لا أدري. ولا سيما إذا كان الله لديك شيء آخر تفكر فيه.

واكتسى وجهها بإمارات الجد، وهي تنطق هذه الجملة الأخيرة. فقلت لها:

- بديع هذا! ما دمت قد رأيت نفسك تتزوجين أميرًا صينيًا، فسوف تفهمينني تمام الفهم. والآن إصغي. ولكن رويدك لحظة. إني لست أعرف أسمك حتى الآن.

- أخيرًا!.. لم تبكر بالتفكير في هذا على كل حال؟

- يا إلهي! لم يخطر لي هذا الأمر، فقد كنت سعيدًا سعادة كافية بدون معرفة إسمك.

- إسمي «نستنكا».

- نستنكا فقط.

- فقط. أليس هذا كافيًا أيها الطماع؟

- كاف.. بالعكس، إنه شيء كثير، وأكثر من كثير. لابد أنك يا نستنكا فتاة رقيقة القلب جدًا ما دمت تسمحين لي أن أناديك «نستنكا» على الفور..

- أتمنى أن أكون كما قلت. والآن أستمر.

- أصغي إذن يا نستنكا لهذه الحكاية المسلية.

وجلست بجوارها، واتخذت هيئة رزينة وقورًا، وشرعت أتكلم وكأني ألقي قطعة محفوظات:

- قد لا تكونين متنبهة لهذا يا نستنكا، ولكن في بطرسبرج أركان غريبة جدًا. فالشمس التي تشرق على سائر البقاع يبدو أنها لا تتسلل إلى هذه الأماكن، بل التي تطل عليها شمس أخرى، شمس جديدة، صنعت خصيصًا لهذه الأركان القاصية، وتلقي ضوءًا غريبًا ومختلفًا على كل شيء، والحياة في هذه الأركان القاصية تبدو عالمًا منفصلًا، لا تشبه في شيء تلك الحياة التي تعج وتمور من حولنا. بل هي ضرب من الحياة يمكن أن يكون سائدًا في مملكة خرافية غريبة، لا في كوكبنا هذا، في زمننا هذا الجاد كل الجد، وهذه الحياة مزيج غريب من شيء خيالي خالص، ومثالي متطرف، وهو في الوقت نفسه (واأسفاه يا نستنكا) عادي كئيب ومختلط، إن لم نقل أنه مبتذل بصورة لا يصدقها عقل.

- يا إلهي! يا لها من مقدمة! إني لأتساءل ماذا أنا مزمعة أن أسمع؟

- نستنكا (وأحسبني لن أكل من ترديد إسمك) نستنكا... ستسمعين أن هذه الأركان القصية تسكنها أناس غريبو الأطوار، هم الحالمون. والحالم -إن كان لابد لك أن تعرفي ما هو التعريف الدقيق لهذه الكلمة- ليس شخصًا حقيقيًا، بل هو مخلوق محايد. وغالبًا ما يستقر هذا المخلوق في ركن قصي لا يمكن الوصول إليه، وكأنه يتوارى فيه من ضوء النهار نفسه، ومتى حبا إلى قوقعته، غدا لصيقًا بها كما يصنع الحلزون. أو على الأصح ذلك الحيوان الطريف الذي هو بيت وحيوان في الوقت نفسه، وهو السلحفاة. لماذا هو مغرم هكذا بجدرانه الأربعة، ذات الطلاء الأخضر، جدرانه القذرة الكلية التي سودها الدخان، لماذا تظنينه مغرمًا بها إلى هذا الحد؟ ولماذا -عندما يزوره أحد أصدقائه القلائل (وغالبًا ما ينتهي به الأمر ألا يكون له أصدقاء إطلاقًا -لماذا يستقبل هذا المخلوق الغريب زائره وسط هذه الفوضى، وهو في غاية الحرج، وملامحه متقلصة ملتوية، كأنه قد اقترف جريمة داخل جدرانه الأربعة، أو كان منهمكًا في تزوير أوراق النقد، أو كان ينظم أشعارًا سيرسلها إلى إحدى المجلات، ومعها خطاب غفل من التوقيع يقول فيه أن الشاعر توفاه الله، وأنه بوصفه صديقه رأى من واجبه المقدس أن يعمل على نشر أشعاره؟ قولي لي يا نستنكا لماذا يكون الحوار ينه وبين زائره متكلفًا طنانًا؟ ولماذا يخلو من الضحك، ولماذا لا يبدي الزائر الحائر ملاحظة مرحة، مع أن هذا الزائر نفسه شغوف في أي ظرف آخر بالضحك والملاحظات المرحة، والتناقش في كل ما يتعلق بالجنس اللطيف، والثرثرة في موضوعات أخرى مهيجة؟ لماذا ترين هذا الصديق الذي يزوره بلا شك للمرة الأولى والوحيدة (لأنه في هذه الحالة لن تكون هناك زيارة أخرى، فهذا الصديق لن يكررها) لماذا ترينه يبدو شديد الارتباك والحرج، كان لسانه مربوط برغم سرعة بديهته في العادة، عندما يرى سحنة مضيفه المرتبكة المنزعجة، الذي ارتبك غاية الإرتباك وفقد تماسكه بعد فشل محاولاته اليائسة لعبور الفجوات في الحديث وبث الروح فيه، عسى أن يبدو ضليعًا في اللبانة الاجتماعية، فيدلي بملاحظة عن الجنس اللطيف، لعله يتحبب بذلك إلى الرجل المسكين الذي أتى لزيارته بطريق الخطأ؟ ولماذا يخطف الزائر قبعته فجأة هكذا، ويسرع بالخروج، متذكرًا على حين غرة موعدًا بالغ الأهمية لا وجود له في الواقع، جاذبًا يده

ليحررها من قبضة مضيفه المحمومة، في حين يبذل الآخر كل ما في وسعه كي يظهر له أنه آسف، ويحاول إصلاح الموقف؟ ولماذا ينفجر الزائر ضاحكًا بمجرد خروجه من الحجرة، مقسمًا على الفور ألا يكرر زيارته لهذا الشخص الغريب الأطوار مع أن هذا الشخص الغريب الأطوار مخلوق رائع، إلا أنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن يمنع مخيلته من الانغماس في لعبة صغيرة. وهي أن يقارن -مقارنة فيها كثير من التعمل في الواقع- بن سحنة مضيفه، ومنظره طول الفترة التي إستغرقها الحوار، وبين سحنة قطة صغيرة بائسة لقيت الأمرين من تعذيب بعض الغلمان بكل الوسائل الممكنة، إلى أن أفلتت منهم ولاذت مختبئة تحت مقعد، ترتجف وتعطس، وتغسل وجهها الصغير بمخلبيها، وتنظر نظرة عداء إلى العالم كله، بما في ذلك الفتات الذي يتبقى من مائدة مولاها، وتدخره لها مدبرة البيت العطوف؟.

وقالت نستنكا التي كانت طول هذه الفترة تصغي لي في دهشة، محدقة بعينيها ومنفرجة الشفتين:

- لا أدري لماذا حدث هذا كله، ولا لماذا تسألني كل هذه الأسئلة المضحكة، ولكن الذي أعرفه بالقطع أن كل هذه التجارب من البداية إلى النهاية وقعت لك.

فأجبتها بكل جد:

- بلا شك.

- إن كان ذلك كذلك، استمر في كلامك، لأني شديدة الرغبة في معرفة إلام سينتهي هذا كله.

- تريدين أن تعرفي يا نستنكا ما الذي كان البطل يصنعه في ركنه القصي، أو على الأصح ماذا كنت أصنع، لأن بطل القصة هو أنا، بشخصي المتواضع. أتريدين أن تعرفي لماذا أفقدتني زيارة صديقي توازني، وقلبت موازيني يومًا بأكمله؟ أتريدين أن تعرفي لماذا أجفلت وارتبكت عندما إنفتح الباب على حين غرة، ولماذا عجزت عن استقبال ضيفي كما ينبغي، وانهرت هذا الإنهيار الشائن تحت وطأة هذه الضيافة؟

فأجابتني نستنكا:

- نعم. هذا ما أود معرفته. إنك تتكلم ببراعة وفخامة، ولكن أليس في وسعك أن تتكلم بفخامة أقل، لأنك تبدو كما لو كنت تقرأ من كتاب مفتوح أمامك!

فأجبتها. بصوت جاد وقور، وأنا أتمالك بصعوبة ما استولى عليَّ من الرغبة في الضحك:

- نستنكا. عزيزتي نستنكا ..أنا أعلم أن حديثي فخم، ولكني آسف لأني لا أستطيع أن أتكلم بصورة غير هذه. فأنا في هذه اللحظة يا نستنكا أشبه بجني كان الملك سليمان قد حبسه في القمقم المغلق بسبعة أختام، وإذا بالأختام السبعة قد قضت فجأة. الآن يا عزيزتي نستنكا، وقد التقينا مرة أخرى بعد فراق طويل -لأني عرفتك ردحًا طويلًا من الزمن يا نستنكا- كنت أبحث منذ أمد مديد عن شخص ما، وهذه آية على إنك الشخص الذي كنت أبحث عنه، وعلى أن لقاءنا هذا مرتب من قبل. ولذا إنفتحت في رأسي مئات الصنابير، ولابد لي من إطلاق العنان لطوفان من الألفاظ والكلمات، وإلا إختنقت. ولذا أرجوك ألا تقاطعيني، بل إصغي لي يا نستنكا بوداعة وتنبه، وإلا سكت.

- أوه. لا. لا. لا. بل استمر. تكلم. ولن أفوه بكلمة أخرى.

- إذن أقول إن هناك ساعة في نهاري كله أحبها حبًا خارقًا يا صديقتي العزيزة نستنكا. إنها الساعة التي تكون فيها معظم الأعمال والواجبات والأشغال قد تمت، ويسرع كل إنسان إلى بيته ليتعشى، أو يغفو، أو يقضي السهرة، وكل وقت فراغه في مسليات مرحة، يخطط لها وهو يحث الخطى. وفي هذه الساعة تجدين بطلنا أيضًا. واسمحي لي يا نستنكا أن أواصل هذا السرد بضمير الغائب، لأنه يخجلني جدًا أن أتكلم بضمير المتكلم - في هذه الساعة تجدين بطلنا- وهو أيضًا لم يقض نهاره متكاسلًا -يحث الخطى مثل سائر الناس، بيد أن وجهه الشاحب الحافل اللون بعض الشيء يتوهج بإمارات التذاذ غريبة. ويرقب غروب الشمس في سماء بطرسبرج الباردة. وأكذب عندما أقول أنه يرقب الغروب،

لأنه لا يرقبه بل يحدق فيه وهو كالشارد لبه، أو كانه متعب أو مستغرق في شيء آخر، شيء أهم لديه مما يشهده بعينيه، فأقصى ما يستطيع أن يعيره العالم من حوله اهتمام عابر عرضي، وهو مسرور لأنه فرغ من شواغله المضطربة المغيظة حتى اليوم التالي، وهو في ابتهاجه أشبه بالتلميذ الذي رخصوا له في مغادرة قاعة الدرس كي يتلهى بألعابه وعبثه. انظري إليه يا نستنكا! ترى على الفور أن السرور الذي يشعر به قد ترك أثرًا حسنًا على أعصابه الضعيفة ومخيلته الوبيلة. فهو الآن مسترسل في أحلام اليقظة، أتحسبينه يفكر في عشائه؟ أو في تسليات المساء؟ ما الذي يحدق فيه هكذا؟ أيحدق في ذلك السيد المهيب الطلعة الذي ينحني بكل أبهة للسيدة التي تمر به في عربتها التي تجرها الخيول المطهمة؟ كلا يا نستنكا. فماذا تعني لديه كل هذه التفاهات الآن؟ إنه غني الآن بثراء عالمه الخاص، هذا الثراء الذي هبط عليه فجأة، وليس إلتماع شعاع الشمس الغاربة بكل هذا المرح أمامه عبثًا، فقد أدفأ قلبه، وحرك فيه جيشًا من الأخيلة. ولم يعد يلاحظ ذلك الطريق الذي كان مند لحظة واحدة من الممكن أن تسترعي إنتباهه فيه أتفه الأشياء، لأن آلهة الخيال (إن كنت قد طالعت زوكوفسكي يا عزيزتي نستنكا) جلست إلى نولها السحري، وفي يدها الخيط الذهبي، كي تنسج له نسيجًا من الأحلام، التي تدور حول حياة أسطورية، وهكذا رفعتها بيدها السحرية بعيدًا جدًا عن الطوار الجرانيتي الذي كان يخطو فوقه سائرًا إلى بيته، ورفعته إلى السماء السابعة البللورية فلو إستوقفته وسألته فجأة أين هو، أو ما هي الشوارع التي مر بها، لما كان -أكبر الظن- خليقًا أن يتذكر شيئًا من هذا، ولا أن يعرف أين هو، ولا أين كان، ولأحمر وجهه مرتبكًا، وراح يخترع لك قصة ينقذ بها ماء وجهه. ولهذا السبب ترينه مجفلًا دائمًا، ويكاد يصرخ وينظر حوله مذعورًا عندما تستوقفه سيدة محترمة جدًا في وسط الطوار وتطلب إليه أن يدلها على الطريق. ويعبس في ضيق، ويحث الخطى، وهو لا يكاد يحس وجود المارة الذين يبتسمون وهم ينظرون إليه، ويلتفتون وراءهم ليتعقبوه بنظراتهم، ولا يحس بالفتاة الصغيرة التي تخطو بعيدًا عن طريقه في ذعر، ثم تنفجر ضاحكة عندما ترى إبتسامته الواسعة الشاردة، وإيماءاته بيديه. وعندئذ تتناول ربة الخيال هذه السيدة العجوز، والمارة الفضوليين،

والبنت الصغيرة الضاحكة، والنوتية الذين يتناولون عشاءهم على زوارقهم التي تزدحم بها الفوتنكا (هذا إذا ما فرضنا أن بطلنا يمر بها في هذا الوقت) وتدخل هؤلاء جميعًا في نسيجها الذهبي، على نحو ما يدخل الذباب في نسيج العنكبوت، ويدخل الرجل الغريب الأطوار عرينه الصغير أو وجاره ومعه ثروته الجديدة، ويجلس هناك ويتناول طعامه، ولا يوقظه من أحلامه إلا دخول متريونا، خادمته الحزينة دائمًا، كي تنظف المائدة وتأتيه بغليونه، وعندئذ يتذكر في دهشة أنه فرغ من طعامه، وفاته التيقظ إلى هذه العملية برمتها. ويخيم على الحجرة الظلام والفراغ ويملأ الحزن قلبه، وتنهار مملكة الخيال من حوله وتتفتت فتمسى ترابًا، من غير أن يكون لإنهيارها صوت أو ضجيج إرتطام. إنقشعت كالحلم، ولم يعد يتذكر بماذا كان يحلم. ولكن ها هو إحساس غامض يعتريه، ورغبة جديدة، تجعل قلبه يخفق ويتوجع قليلًا، وتثير خياله، وتغويه، وتستدعي إلى خاطره شرذمة أخرى من الأشباح... ويسود الصمت الحجرة الصغيرة، وتتلذذ مخيلته بالوحدة والتراخي، وتأخذ في التراقص على شكل فقاعات صغيرة، كتلك الفقاعات التي يغلي بها الماء في تنكة قهوة متريونا العجوز، وهي تتحرك في المطبخ الملاصق لحجرته، متصرفة إلى صنع القهوة بكل إهتمامها. ثم تتدفق أخيلته وتندلع كألسنة اللهب الصغيرة، ويسقط من يد بطلنا الحالم ذلك الكتاب الذي كان قد تناوله حينما أتفق، ولم يقرأ فيه أكثر من صفحة أو صفحتين. لقد إستيقظت مخيلته مرة أخرى وراحت تنشط من جديد، صانعة له عالمًا جديدًا فاتنًا يتراءى أمام عقله بكل إمكاناته. حلم جديد، وسعادة جديدة! جرعة واحدة من السم الرقيق المتسلل! وماذا يعنيه من حياتنا الواقعية؟ فمن وجهة نظره المخدرة نعيش -أنت وأنا- حياة بطيئة كسول بليدة.

إننا جميعًا يا نستنكا ساخطون على قسمتنا، ونجد حياتنا مرهقة جدًا. وها أنت ترين كيف نعامل بعضنا بعضًا ببرود وجهامة وغضب. ويأس بطلي العالم للبشر المساكين. ولا عجب! ويكفي أن تنظري إلى الصورة السحرية الجياشة التي تنسجها له هذه الأشباح بكل هذه الفتنة والسحر، في إتقان وبراعة وسخاء، ويبدو حالمنا شخصيًا بطبيعة الحال أهم شخصية في المقدمة من هذه الصورة الرائعة وأنظري إلى المغامرات المتنوعة، والمد التدفق الذي لا ينتهي من هذه الأحلام المسكرة! وقد تتساءلين بماذا يحلم؟ وفيم السؤال؟

إنه يحلم بكل شيء. يحلم أنه شاعر، تجاهلوه في البداية ثم توجوا هامته فيما بعد بأكاليل الغار. يحلم بصداقة هوفمان، وبليلة مذبحة القدس برتلوميو، وبديانا، وبقيامه بدور بطولي في غزوة قازان على يد القيصر إيفان... وبقيامة الموتى في «أوبرت الشيطان» (أتذكرين الموسيقى؟ ورائحة الجبانة التي تفوح منها) وبموقعة برزينا، وبأنه يقرأ أشعاره في صالون الكونتيسه ف. د. ويحلم بدانتون، وكليوباترا وعشاقها، ويحلم ببيت صغير في كولومنا، عبارة عن ركن صغير خاص به، وبجواره مخلوقة حلوة، تصغي له في ليل الشتاء بعينين واسعتين وشفتين منفرجتين، على نحو ما تصغين لي أنت الآن، يا ملاكي الصغير. كلا يا نستتنكا، إن هذا المتراخي الحالم لا يهتم بشيء من أمور الحياة التي نتلهف أنت وأنا على تذوقها، فهو يراها حياة هزيلة تعسة، ولا يستطيع أن يعرف أن الجرس سيدق له أيضًا بدقاته الحزينة يومًا ما، فيكون مستعدًا أن يبذل في سبيل ساعة واحدة من هذه الحياة التعسة كل سنوات خياله، ولا يبذلها مقابل البهجة أو السعادة حتمًا، بل لا يفكر في أن يتخير لتلك الساعة الواحدة الحزينة شيئًا معينًا، بيد أنه إلى أن تحين هذه الساعة الرهيبة لا يشتهي شيئًا، لأنه فوق الرغبة والإشتهاء، فلديه بالفعل كل شيء، إنه شبعان مكتف لأنه فنان ذاته، يخلق لنفسه عالمًا جديدًا كلما خطرت له فكرة جديدة. وأنت تعلمين أن هذه الحكاية الخرافية، هذه الدنيا من الخيال يمكن خلقها بسهولة شديدة، وبصورة طبيعية جدًا، وكأنها ليست البتة في الواقع إلا شبحًا!

أجل، أعتقد في بعض الأحيان أن هذا العالم ليس سرابًا، وليس من خلق حواسي المستشارة، وليس إحتيالًا قامت به مخيلتي، بل أنه حقيقي فعلًا، وصحيح، وموجود. والآن خبريني يا نستتنكا لماذا تحس روحي بالكرب في لحظات كتلك اللحظات؟ لماذا إذن؟

أي سحر، وأي قوة غريبة تجعل النبض يسرع، ويجلب الدموع إلى عيني الحالم، وتصبغ خديه الشاحبين المبللين بالدمع، ويملأ كيانه كله بفرح سماوي المصدر؟ لماذا يبدو له أن لياليه المؤرقة تمر سراعًا، في غمرة السعادة والبهجة، ولماذا عندما تومض بواكير أشعة الشمس الوردية من خلال النافذة، ويرسل الفجر ضوءه الغريب المتردد إلى داخل حجرته، على النحو المعهود هنا في بطرسبرج، عندئذ يلقى بطلنا الحالم بنفسه وقد أنهكه الإعياء فوق فراشه ويستغرق في النوم، وقد استولت عليه النشوة التي تهيمن على ذهنه المهتز، وقد فاض قلبه بألم له عذوبة لا تطاق؟ أجل يا نستنكا، يخدعك هذا كله فتعتقدين أن العاطفة التي تموج في أغوار نفسه عاطفة حقيقية وصادقة، وتصدقين عندئذ أن في أحلامه اللامادية شيئًا محسوسًا ملموسًا حيًا. فكري في هذه الخدعة! فالحب -مثلًا- يدخل من باب هذه الأحلام قلبه بكل ما فيه من فرح لا حد له، وعذاب فظيع في الوقت نفسه. ونظرة واحدة إليه كفيلة أن تقنعك بهذا! أيمكن إذن أن تصدقي وأنت تنظرين إليه يا عزيزتي نستنكا أنه لم يعرف قط على الحقيقة تلك التي أحبها هكذا في أحلامه النشوانة؟ إنه طبعًا لا يمكن أن يكون رآها في خيالاته الخادعة وحدها، فليست عاطفته إلا حلمًا وهميًا؟ يمكن أن يكون صحيحًا إنهما لم يقضيا كل تلك السنوات الكثيرة من عمريهما معًا، يدًا في يد، هما الإثنان وحدهما وليس معهما أحد، تاركين العالم كله، وقد أدمجا مصيريهما وقدريهما وعالميهما الخاصين بهما في نسيج واحد فريد؟ ألم تكن إذن هي تلك التي ارتمت منتحبة حزينة على صدره تلك الليلة، ليلة الفراق، وقد صمت أذناها عن العاصفة الهادرة تحت السماء المكفهرة، غير عابئة بالريح التي كانت تطيح بقطرات الدموع من بين أهدابها الطويلة السوداء، وتذروها إلى بعيد؟ قطعًا لم يكن هذا كله حلمًا. ولا تلك الحديقة أيضًا، الحديقة الموحشة المهملة الوحشية المقفرة التي غطت ممراتها الأعشاب والطحالب، التي كثيرًا ما سارا فيها يلفهما الأمل، واليأس، والحب، في وقت واحد. أجل هناك أحب كل منهما الآخر أمدًا طويلًا جدًا، وبحنان شديد؟

وذلك البيت الغريب الموروث عن الأسلاف، الذي عاشت هي فيه سنوات طويلة جدًا، في عزلة وحزن، مع زوجها المسن الواجم الصموت السريع الغضب. الذي كانا يخشيانه كأنهما طفلان هيابان، ولذا كان كل منهما يخفي حبه عن الآخر في خوف وحزن ويأس؟ أي عذاب عانياه، وما أشد فزعهما، وأطهر حبهما وأبرأه! وما أشر الناس (وهذا أمر مسلم به لا يحتاج إلى بيان يا نستتكا!). ولكن -يا إلهي- أيمكن ألا تكون هي تلك التي قابلها مرة أخرى بعد ذلك بمدة طويلة، بعيدًا عن شواطىء بلاده، تحت سماء أجنبية، حارة مالحة، في المدينة الأبدية الجميلة، في حفل راقص باهر، على نغمات الموسيقى المعزوفة، في ذلك القصر (فلابد أن يكون قصرًا!) الذي تغمره الأضواء؟

ألم تكن هي التي رآها في الشرفة التي تحف بها الورود والآس؟ وما أن لمحته حتى رفعت القناع عن وجهها بسرعة هائلة وهمست قائلة «أنا الآن حرة!» وطارت فإرتمت بين ذراعيه وهي ترتجف، مطلقة صيحة فرح، فتعلق كل منهما بالآخر، وفي لحظة واحدة نسيا كل شيء: نسيا أحزانهما، وإفتراقهما وكل معاناتهما، والبيت الكئيب، والشيخ الصامت، والحديقة الموحشة في وطنهما البعيد، ومقعد الحديقة الذي قبلته فوقه قبلة ملتهبة وهي تنتزع نفسها من بين ذراعيه اللتين سرى فيهما الخدر من فرط العذاب والقنوط. آه. يا نستتكا!

لابد أن تقري أنك ستُذهلين، ويحمر وجهك وكأنك تلميذ دس في جيه تفاحة سرقها من بستان الجيران، إذا ما إنفتح بابك فجأة ليدخل منه صديق لم توجه إليه دعوة، طويل، قوي، البنية مرح سريع النكتة حاضر البديهة، يصيح بك وكأن شيئًا غير عادي لم يحدث: «لقد عدت لتوي من بافلوفسك» فالكونت المسن قد مات. وساعة السعادة التي لا توصف قد حانت، وها هو شخص قد حضر لتوه من بافلوفسك!.

* * *

وسكت بصورة درامية بعد أن وصلت إلى ختام أقوالي الدرامية. وأذكر جيدًا كيف وجدت عناء في حمل نفسي على الضحك في تلك اللحظة، لأني شعرت بجني صغير معاد يتحرك في قلبي، وتوقفت أنفاسي في حلقي، وأخد ذقني يرتعش، وازداد تخضل عيني بالدموع. وخشيت جدًا أن أرى نستنكا -التي كانت تصغي لي وعيناها الذكيتان مفتوحتان على سعتهما- تنفجر ضاحكة ضحكتها التلقائية الطفلية، وشعرت بالأسف لأنني ذهبت إلى هذا المدى البعيد، فصرحت بكل ما كان يثقل قلبي منذ زمن طويل، ولذا كان في مقدوري أن أتفوه به وكأنه قطعة من المحفوظات. فقد كان حكمًا أصدرته على نفسي، وإستهواني أن أتلوه عليها، وإن كنت أعترف بأني لم أتوقع أن أجد لديها تفهمًا كاملًا له. ولكنها، لدهشتي ظلت صامتة، وبعد قليل ضغطت على يدي بلطف وسألتني بلهجة تنم على اهتمام متشع بالخجل:

- أهكذا حقًا عشت طول حياتك؟

فأجبتها قائلًا:

- طول حياتي يا نستنكا. طول حياتي. وأخالني سأظل أعيش هكذا حتى نهاية عمري.

فقالت بلهفة:

- كلا. لن يكون هذا، لأنني عندئذ سأقضي أنا أيضًا بقية عمري جالسة بجوار جدتي. أتدري أنه ليس صوابًا على الإطلاق أن يعيش المرء هكذا؟

فصحت، وأنا عاجز عن الإستمرار في كبح إنفعالي:

- بل أدري يا نستنكا. أدري. أدري هذا الآن أفضل مما كنت أدري في أي وقت مضى أنني أضعت أفضل سنوات عمري هباء. أعرف هذا الآن معرفة أليمة، لأن الله نفسه أرسلك لي، يا ملاكي الحنون، لتقولي لي هذا وتقنعين به.

وها أنا الآن جالس هنا بجوارك.. أتحدث إليك، وأرهب المستقبل، لأن المستقبل ليس فيه إلا العودة للوحدة والوحشية، وتلك الحياة الغثة التي لا معنى لها. وما الذي يمكن أن أحلم به الآن بعد أن سعدت معك كل هذه السعادة الحقيقية، فليباركك الله يا فتاتي العزيزة، لأنك لم تصديني، وصار الآن في مقدوري أن اقول إنني عشت ليلتين على الأقل في عمري كله!.

فصاحت نستنكا، وقد لمعت الدموع فوق أهدابها:

- لا. لا. لن يكون هذا! لن نفترق هكذا! فما قيمة ليلتين؟

- آه يا نستنكا! أتعلمين أنك أصلحت الآن بيني وبين نفسي لفترة طويلة قادمة؟ أتعلمين أنني لن أسيء الظن بنفسي بعد الآن، كما كان من عادتي أن أسيء الظن بها؟ أتعلمين التي قد لا أيأس بعد الآن لأني إقترفت جريمة وإرتكبت إثمًا في حياتي، لأن حياة كحياتي إنما هي جريمة وإثم! وأرجوك ألا تظنيني بالغت لك في شيء. بحق السماء لا تظني بي هذا يا نستنكا، فأنا أحيانًا أقع فريسة السوداوية السوداوية المطبقة... وعندما تستولي عليَ هذه النوبات، أعتقد أنني عاجز عن استئناف حياة جديدة، واقعية، لأنه يخيل إليَ عندئذ إني فقدت كل إتصال وإحساس بما هو واقع وما هو حادث فعلًا، وكأنني بعت نفسي. فليالي الأحلام والخيال هذه تعقبها لحظات صحو، وما أهول هذه اللحظات! ففيها أستطيع أن أسمع الحياة تصخب وتدوم من حولي في دوامة بشرية هائلة، وأسمع الناس وأراهم يعيشون حياتهم الواقعية. وأتبين أن عالمهم لم يصنع حسب الطلب، وأنه لن يتبدد كما تتبدد الأحلام أو الرؤى. وأن حياتهم ناضرة دائمًا، متجددة الشباب، وإن كل ساعة فيها تختلف عن سابقتها، أما الخيال المذعور فكئيب ورتيب متواتر الشبه إلى حد الإملال، فهو عبد لكل شبح، ولكل خاطر، عبد لأول سحابة تحجب وجه الشمس وتعصر قلب كل إنسان حقيقي في بطرسبرج نكدًا وكربًا، فالناس الحقيقيون يعتمدون كل الاعتماد على الشمس في بطرسبرج. وأي دور للخيال في النكد والكرب؟ أنك لتشعرين بالتوتر المستمر ينهك خيالك الجامح في النهاية ويضنيه ويعييه، لأنك تزحفين إلى النضوج، وتكبرين على مثلك العليا السابقة... فتتحطم هذه المثل وتتفتت حتى تغدو ترابًا.

وما لم يكن لك حياة أخرى تعيشنها، فأنت مضطرة عندئذ لإعادة بناء حياتك من ذلك الركام والحطام. بيد أن روحك تصرع مطالبة بشيء مختلف تصبو إليه وتتلهف عليه؟ وعبثًا ينبش الحالم رماد أحلامه السابقة، على أمل أن يجد فيها على الأقل شرارة صغيرة متوارية بين الإنفاق كي ينفخ فيها ويعيدها إلى الحياة، ليدفئ فؤاده المقرور بتلك النار التي بعثها من العدم، ويعيد إليه كل ما كان أثيرًا لديه من قبل، وكل ما كان يحركه، ويجعل دماءه تتقد، ويدفع إلى مآقيها بالدموع! أتدرين إلام بلغ بي الأمر يا نستنكا؟ أتدرين أنني الآن أراعي الذكرى السنوية لعواطفي الماضية، عواطفي التي كنت أكنها نحو أشياء لم تحدث قط بالفعل، لأن هذه الذكرى السنوية تحتم على أحلامي الحمقاء أن أحتفل بها! أحتفل بها لأن أحلامي الحمقاء نفسها لم يعد لها وجود، فليس عندي ما أدعمها به. فعلى المرء أيضًا أن يعيش أحلامه، كما تعلمين، أتعلمين أنني الآن أحب أن أتذكر وأزور، في تواريخ معينة، البقاع التي عرفت فيها السعادة يومًا ما بطريقتي الخاصة الغريبة، وأحب أن أربط ربطًا متناغمًا بين حاضري وماضي الذي لن يعود. وكثيرًا ما أتجول جيئة وذهابًا في دروب بطرسبرج وأزقتها كالشبح، فريسة للثبوط والكآبة والأسى، على غير هدى، وبغير هدف؟ يا لي من ذكرياتي! وإني لأذكر -مثلًا- إنني هنا، منذ عام بالضبط، ذرعت هذا الطوار جيئةً وذهابًا، مكتئبًا أسيانًا محزوًنا، في مثل حالي الآن. وأذكر أن أحلامي يومئذ كانت أسيفة حزينة، ولكن لم تكن أفضل من أحلامي الحالية، إلا إنني لا أتمالك نفسي من الإحساس بأن الحياة كانت أيسر وأهدأ في تلك الأيام، ولا تعكرها الفكرة السوداء التي ترهقني الآن.

ولم تكن تقض مضجعي آلام وخز الضمير الكالحة، التي لا تدع لي لحنطة سلام بالليل أو بالنهار. أيتساءل المرء أين ذهبت أحلامه؟ ويهز المرء رأسه ويقول: ما أسرع مرور الأعوام! ويتساءل المرء مرة أخرى: ماذا صنع بحياته؟ وأين وارى ودفن أفضل سنواتها؟ أعاش أم لم يعش؟ ويقول لنفسه: أنظر كم غدا العالم شديد البرودة! أعوام أخرى ستمر، تأتيك معها بمزيد من الوحدة الكئيبة والوحشة، ثم تأتي الشيخوخة المرتجفة، تتوكأ على عكاز،

ولن يكون بعد هذا شيء سوى التعاسة والكآبة. وعالمك الشبحي سيخبو، وتذوي أحلامك، وتتساقط كأوراق الشجر الصفراء الميتة. أوه يا نستنكا! أليس من المحزن أن يظل المرء وحيدًا، تمام الوحدة، وليس لديه شيء يأسى عليه، لا شيء لديه إطلاقًا.. فأيًا كان ما أفقده، فلن يكون ما أفقده شيئًا ملموسًا. بل هو العدم، هو الأحلام، ولا شيء سواها!.

فقالت نستنكا وهي تمسح دمعة إنسابت على خدها:

- لا تسترسل! لقد أبكيتني! انتهى كل هذا الآن! سنكون اثنين منذ الآن، ولن نفترق مرة أخرى، مهما حدث لي. أنا فتاة بسيطة. ولم أدرس الشيء الكثير مع أن جدتي إستأجرت لي معلمًا، ولكني الحق أقول لك أستطيع أن أفهمك، لأن كل ما قلت لي قد مر بي شخصيًا عندما استبقتني جدتي مشدودة إلى ثوبها بالدبوس المزدوج ولكنني طبعًا لم أكن أستطيع أن أرويه بالبراعة التي رويته بها، لأني لم أتعلم كما تعلمت.

كانت تتكلم على استحياء، لأنها شعرت بالاحترام لحديثي الدرامي وأسلوبي الرفيع، وأردفت قائلة:

- ولكني مسرورة جدًا لأنك فتحت قلبك لي. فأنا الآن أعرفك، بل أعرفك معرفة كاملة، وأريد أن أحكي لك قصتي أيضًا، بحذافيرها، بدون تحفظ، وستدلي لي بنصحك بعد ذلك. فأنت شخص بارع جدًا. فهل لك أن تعدني بتقديم نصحك لي بعد سماعها؟

فأجبتها:

- آه يا نستنكا. لم أكن في يوم من الأيام ناصحًا، ولا بارعًا، ولكني أقول لك أننا إذا ظللنا مثابرين على هذا النهج، فسيكون هذا أفضل ما يمكن، وعندئذ يتسنى لكل منا أن يوجه النصح للآخر بكل براعة. والآن ماذا تريدين يا عزيزتي نستنكا أن تعرفي؟ خبريني بصراحة، فأنا الآن في غاية السعادة، والبهجة، والجرأة، والحكمة، بحيث لن تعييني البحث عن الإجابة.

فقاطعتني نستنكا ضاحكة:

- لا. لا. ليس ما أبحث عنه نصيحة بارعة، بل نصيحة مخلصة وأخوية، من ذلك الطراز الذي يجدر بك أن تقوله لي أنك كنت مغرمًا بي طول حياتك.

فصحت بحماسة:

- ليكن يا نستنكا! ليكن! ولو كنت مغرمًا بك على مدى عشرين عامًا، ما كنت خليقًا أن أكون أشد ولوعًا بك من اليوم!.

فقالت نستنكا:

- إذن هات يدك!

- هاك يدي!

وأعطيتها يدي!

- إذن تسرع في قصتي!

قصة نستنكا

- أنت تعرف نصف قصتي من قبل. أو على الأقل تعرف أن لي جدة عجوزًا.

فقاطعتها باسمًا:

- إن كان النصف الباقي بمثل هذا الإيجاز...

- إهدأ وأصغ. ولابد لي أن أشترط شرطًا.. لا تقاطعني وإلا اختلطت عليَ الأمور في صمت.. لي جدة عجوز، ذهبت لأعيش معها عندما كنت فتاة صغيرة جدًا، لأن والدي ووالدتي كليهما كانا ميتين. وأحسب أن جدتي كانت أغنى مما هي الآن. لأنها لم تزل تذكر تلك الأيام الرخيصة. وقد علمتني الفرنسية بنفسها، ثم استأجرت لي مؤدبًا خاصًا. ولما بلغت الخامسة عشرة (وأنا الآن في السابعة عشرة) توقفت دراستي. وكان هذا عندما إقترفت ذلك العمل الشرير. ولن أخبرك ما هو، ويكفي أن أقول إنه لم يكن شيئًا ذا بال. ولكن جدتي استدعتني إليها ذات صباح وقالت لي أن عماها بحول بينها وبين مراقبتي، ثم تناولت دبوسًا مزدوجًا فشبكت ثوبي بثوبها، قائلة إننا هكذا سنظل سائر عمرينا.. اللهم إلا إذا تحسنت بطبيعة الحال. وفي البداية لم يكن هناك أي أمل في الإفلات إطلاقًا، فكان عليَ أن أجلس بجانب جدتي سواء وأنا أقرأ، أو أدرس، أو أحيك الصوف. وجبرت الحيلة الماكرة ذات مرة، وأقنعت «فيوكلا» بأن تحل محلي. وفيوكلا خادمتنا، وهي صماء. فجلست في مقعدي بجوار جدتي التي إستغرقت في النوم وهي جالسة وقتئذ، وانطلقت أنا لزيارة فتاة تقطن بالقرب منا. وانتهي هذا الملعوب أسوأ نهاية، فقد استيقظت جدتي وقالت شيئًا ما، ظنًا منها أني جالسة بجوارها في صمت. ورأت فيوكلا جدتي تسأل سؤالًا، ولكنها لم تستطع أن تتبينه بأذنها الصماء، وراحت تقدح ذهنها ماذا ينبغي أن تفعل، وأخيرًا فكت الديوس المزدوج وهربت!

وانفجرت نستنكا ضاحكة، فضحكت معها، فكفت عن الضحك فجأة وقالت:

- ينبغي ألا تضحك هكذا من جدتي، أما أنا فأستطيع أن أضحك منها، لأنها مضحكة. وهي لا حيلة لها في هذا. إلا أني مع هذا أحبها قليلًا. وقد عاقبتني كما يجب في حينه، وردتني إلى مكاني، ولم أعد أستطيع الحركة بعدها قيد أنملة. ونسيت أن أقول لك أننا -أو على الأصح جدتي- نملك بيتًا خاصًا، وهو بيت صغير جدًا، له ثلاث نوافذ تطل على الشارع. والبيت كله مبني بالخشب، وعتيق مثل جدتي نفسها. ولهذا البيت حجرة علوية تحت السقف المنحدر، وذات يوم من هذه العملية مستأجر جديد.

فقلت عندئذ:

- معنى هذا أنه كان لديكما مستأجر قديم كان يسكنها قبله؟

فأجابت نستنكا:

- طبعًا كان لدينا مستأجر قديم. وكان ذلك المستأجر السابق أشد التزامًا للصمت مما تستطيع أنت. أجل أنه ما كان ليستطيع وقتئذ أن يحرك لسانه على الإطلاق تقريبًا، فقد كان رجلًا حسنًا قصير القامة، نحيلها، وقد جمع بين الصمم والعمى والعرج، وأخيرًا عجز عن مواصلة الحياة، فمات! ولذا كان لابد لنا من مستأجر جديد، لأننا لا نستطيع أن نتدبر أمورنا بغير مستأجر. وشاء حسن الطالع أن يكون المستأجر الجديد شابًا، حديث العهد بالقدوم إلى المدينة، فهو ليس من أهلها. وقد قبلته جدتي على الفور لأنه لم يساومها على الأجرة وعندئذ سألتني جدتي:

«خبريني يا نستنكا. أهذا المستأجر شاب؟».

ولم أحب أن أكذب عليها، فقلت لها:

«إنه ليس شابًا تمامًا يا جدتي، ولكنه ليس مسنًا أيضًا».

فسألتني:

«وهل منظره حسن؟».

ومرة أخرى لم أشأ أن أكذب عليها، فقلت.

«نعم. منظره حسن».

فقالت جدتي:

«آه. يا للعار. يا للعار! إني أحذرك يا حفيدتي. لا تنظري إليه ولا تفكري فيه! ويلتاه! ما الذي يزمع أن يحدث للدنيا! تصوري! مستأجر عليه مسكين، ومنظره رائق أيضًا! ما كانت الأمور هكذا على أيامي!».

وكان من دأب جدتي أن تضرب دائمًا على وتر «أيامها». ففي ذلك الزمن الغابر كانت أصغر سنًا. وكانت الشمس على أيامها أشد دفئًا، والقشدة لم تكن تفسد بهذه السرعة حينئذ. وهكذا كان كل شيء يحدث اليوم يرتد بها إلى «أيامها الخوالي». وصرت أنا أجلس بجوارها وأتساءل: لماذا لفتت جدتي نظري بسؤالي هل مستأجرنا الجديد وسيم وشاب؟ بيد أن ذلك كله مر برأسي مر الكرام، فتناولت الصوف الذي أحيكه، ورحت أحصي الغرز، ونسيت كل شيء من هذا الموضوع.

وكنا قد وعدنا مستأجرنا أن نكسو جدران حجرته بالورق، وهكذا جاء ذات صباح ليستفسر عن هذا الأمر. وأخذت أطراف الحديث تتشابك، لأن جدتي تحب الثرثرة، كما تعلم، إلى أن قالت لي:

«إذهبي إلى مخدعي يا نستنكا، وأحضري لوحة الحسابات. فوثبت واقفة على الفور، وقد شملتني غمرة الخجل من فرعي إلى قدمي -لست أدري لماذا- وقد غاب عن ذهني إني مقيدة إلى ثوب جدتي بالدبوس المزدوج، بدلًا من فك ذلك الدبوس خلسة، حتى لا يلحظ المستأجر حقيقة الوضع، واندفعت بعنف، فإنزلق كرسي جدتي على الأرض. ولما رأيت المستأجر عرف الآن كل شي عني، إزداد إحمراري، وتجمدت في مكاني، وانفجرت بالبكاء فجأة، لأن المرارة والخزي كانا أشد من طاقة إحتمالي! وصاحت جدتي بي:

«لماذا أنت واقفة هناك؟».

فاشتد نحيبي من ذي قبل. ولما رأى المستأجر أني خزيت بسبب وجوده، إستأذن على الفور وإنصرف.

وصرت بعدها أكاد أموت كلما سمعت صوتًا في البهو، فأقول في نفسي أنه لابد أن يكون المستأجر، وأفك الدبوس بهدوء، كي أكون في جانب الأمان. ولكن كان يتضح دائمًا أنه ليس هو، فقد كف تمامًا عن المجيء.

ومر أسبوعان، وذات يوم بعث إلينا المستأجر برسالة عن يد «فيوكلا» يقول فيها أن لديه كتبًا فرنسية قليلة، كلها جيدة، وصالحة للقراءة، وتساءل ألا تحب جدتي أن أقرأها لها على سبيل التغيير. وقبلت جدتي عرضه الكريم شاكرة، ولكنها تسال أهي كتب أخلاقية، قائلة:

«فإن كانت لا أخلاقية فلن تجديك قراءتها يا نستنكا، لأنها سوف تعلمك الخطأ والشر».

فسألتها:

«ما الذي يمكن أن تعلمني إياه يا جدتي؟ ما المكتوب فيها؟».

فقالت:

«آه! مثل هذه الكتب تدور دائمًا حول شبان يغوون الفتيات المهذبات ويهربون بهن من بيوت أهلهن، زاعمين أنهم سيتزوجونهن، ثم سرعان ما يتركونهن لأقدارهن. أما ما يحدث للفتيات فأسوأ وأشأم من أن أقول لك. فقد طالعت الكثير من هذه الكتب التي تروي هذا كله بأسلوب جميل جدًا، بحيث تظلين طول الليل ساهرة تقرئينها يا نستنكا فأي نوع من الكتب بُعث به؟"

فأجبتها:

«كلها روايات من تأليف سير ولتر سكوت يا جدتي»

فقالت جدتي متشككة:

«روايات السير ولتر سكوت؟ أمتأكدة أنت أنه ليس في الأمر خديعة؟ أنظري جيدًا، لتتأكدي أنه لم يدس معها خطاب غرام».

فقلت لها:

«لا يا جدتي. لا خطاب هناك».

فقالت:

«أنظري تحت التجليد، فمن عادتهم أحيانًا أن يدسوا هده الخطابات تحت التجليد، أولئك الأوغاد!».

فقلت:

«كلا يا جدتي. لا شيء أيضًا تحت التجليد».

وهكذا شرعنا نطالع معًا السير ولتر سكوت، وفي مدى شهر واحد كنا قد قرأنا نصف الكتب. وعندئذ أرسل إلينا مستأجرنا المزيد من الكتب، ومن بينها كتب بوشكين أيضًا. وهكذا صرت في النهاية لا أستطيع الحياة بدون كتب، وكففت عن أحلام الزواج من أمير صيني.

وذات يوم التقيت بمستأجرنا على السلم، وكانت جدتي قد أرسلتني كي أحضر لها شيئًا. ووقف، وأحمر وجهي، وأحمر وجهه أيضًا، ولكنه إبتسم وقال لي كيف حالك، وسأل عن أحوال جدتي، ثم سألني:

«هل قرأت الكتب؟».

فأجبته:

«قرأتها».

فسألني:

«وأي كتاب منها أحب إليك؟»

فقلت له:

«أحبها عندي إيفانهو وبوشكين».

وكان هذا كل ما جرى بيننا في تلك المناسبة.

وبعد أسبوع قابلته على السلم مرة أخرى. ولم تكن جدتي قد أرسلتني هذه المرة، بل كنت أريد إحضار شيء لنفسي. وكانت الساعة بعد الثانية، وهي الساعة التي تعود مستأجرنا أن يعود فيها إلى البيت. وقال لي:

«كيف حالك؟»

فقلت:

«كيف حالك؟»

وعندئذ سألني:

- خبريني. أتشعرين بالملل لجلوسك طول النهار مع جدتك هكذا؟

وعندئذ شعرت بوجهي يسخن من شدة الخزي والمرارة مرة أخرى، ولست أدري لماذا، اللهم إلا إذا كان السبب أن الناس شرعوا يسألونني كثيرًا عن هذا الأمر، وخطر لي ألا أجيب، وأنصرف في صمت، ولكني لم أقو على ذلك. وعندئذ قال لي:

«أنت فتاة طيبة.. إغفري لي حديثي إليك على هذا النحو، ولكن تأكدي أنني أشد إهتمامًا بأمرك من جدتك. أليس لك صديقات إطلاقا تذهبين لزيارتهن؟».

فقلت له أنه ليس لي الآن صديقات. وكانت لي صديقة إسمها ماشنكا، ولكنها رحلت إلى بسكوف. فقال لي:

«إسمعي. أتحبين أن تذهبي إلى المسرح معي؟».

فقلت:

«المسرح! ولكن ماذا تقول جدتي؟».

فقال:

«تعالي معي من غير أن تخبري جدتك».

فقلت:

«كلا. لا أريد أن أخدع جدتي. وداعًا».

فقال:

«وداعًا».

ولم يفه بكلمة واحدة بعد ذلك.

وبعد الغداء في هذا اليوم بالذات، جاء إلينا، وجلس في مقعد، وتحدث طويلًا إلى جدتي، وسألها لماذا لا تخرج من البيت إطلاقًا، وأليس لها صديقات. ثم قال على حين غرة:

«لقد حجزت مقصورة في الأوبرا الليلة، حيث يلعبون «حلاق أشبيلية»، وكان من المفروض أن يذهب معي أصحاب لي، ثم غيروا رأيهم، وهكذا صارت الأماكن في المقصورة خالية».

فصاحت جدتي:

«أخلاق أشبيلية! أهو نفس الحلاق الذي كانوا يلعبونه على أيامي؟» فقال:

«نعم. هو بعينه».

ورمقني بنظرة ذات معنى، وكنت قد فهمت كل شيء، فأحمر وجهي، وأسرعت دقات قلبي لهفة.. وسمعت جدتي تقول:

«طبعًا! أعرف هذه الأوبرا. وكنت أنا شخصيًا أؤدي دور روزيتا في عروضنا المسرحية البيتية، في الليالي الخوالي».

فقال المستأجر:

«أفلا يعنيك أن تأتي الليلة لسماعها. فمعي التذاكر جاهزة».

فقالت جدتي:

«أحسبني سـأذهب. ولم لا؟ ثم إن نستنكا لم تذهب إلى المسرح قط من قبل».

وما كان أشد فرحي! وبدأنا نرتدي ملابسنا على الفور، وذهبنا معه. وجدتي عمياء، ولكنها أرادت أن تسمع الموسيقى، ثم هي عجوز طيبة القلب، ولذا أرادت أن تسرني بهذه الفرصة، ولم يكن ليخطر ببالنا أن نذهب بمفردنا. ولا أستطيع أن أقول لك ما هي إنطباعاتي عن حلاق أشبيلية، ولكني أستطيع أن أقول لك أن مستأجرنا ظل يرمقني بنظرات رقيقة حانية طول الوقت، وكان يكلمني برقة شديدة ولطف بالغ، فأدركت أنه كان يختبرني ذلك الصباح عندما طلب مني أن أذهب معه بمفردي. وغلبني السرور على أمري. فأويت إلى فراشي تلك الليلة وأنا أشعر بفخر شديدة وسعادة غامرة، وقلبي يدق دقًا عنيفًا، وأحسبني حممت تلك الليلة بعض الشيء، وظللت أهذي طول الليل بحلاق أشبيلية.

وحسبت أنه سيأتي لزيارتنا بعد ذلك كثيرًا، ولكني كنت مخطئة، إذ انقطع بالكلية تقريبًا عنا. صار لا يأتي إلا مرة واحدة في الشهر أو نحو ذلك، لا لشيء إلا كي يدعونا إلى المسرح. وذهبنا معه مرة أو مرتين. ولكني لم أكن سعيدة بذلك على الإطلاق. فقد تبينت أنه لم يكن يشعر نحوي إلا بالأسف والرثاء، لأن جدتي تعاملني بكل هذا السوء، وهذا كل ما هناك. ورحت أفكر في إكتئاب. وطال بي هذا التفكير، ثم حدث لي شيء لا عهد لي بي من قبل، فلم أعد أستطيع الجلوس مستقرة في مكاني. ولم أعد أستطيع القراءة، أو العمل في حبك الصوف. وكنت أضحك أحيانًا، وأحيانًا أخرى أصنع شيئًا أغيظ به جدتي. وقد أنفجر منتحبة على حين غرة. ونحلت كثيرًا، وكدت أمرض.

وكان موسم الأوبرا قد انتهى، وكف مستأجرنا عن الحضور إلينا تمامًا. وإذا لتفق أني التقيت به على السلم طبعًا، كان ينحني لي بجد ووقار وفي صمت تام، كأنه لا يريد أن يكلمني إطلاقًا، ثم يمضي في طريقه، وأظل أنا واقفة في منتصف السلم، وقد أحمر وجهي كثمرة الكرز، لأن الدم كان يندفع كله إلى رأسي كلما وقع نظري عليه.

وهذه هي النهاية قريبًا الآن. ففي شهر مايو الماضي جاء مستأجرنا إلى جدتي وقال لها أنه فرغ من كل أشغاله هنا، ولذا سيرحل إلى موسكو التي جاء منها، ويمكث هناك سنة، فلما سمعت هذا شحب وجهي وإرتميت مغشيًا علي فوق المقعد، ولم تلحظ جدتي شيئًا، أما هو فانحنى وانصرف.

ولبثت أفكر وأفكر ماذا أصنع. وقلقت وتعذبت، وأخيرًا وصلت إلى قرار. كان مزمعًا أن يرحل في الغد، واستقر رأيي على أن أخطو الخطوة الأخيرة ذلك المساء نفسه بعد إيواء جدتي إلى مخدعها. ونفذت ذلك. فجمعت في صرة جميع أثوابي، وبعض ملابسي الداخلية. وحملت الصرة بين ذراعي، وصعدت السلم أقرب إلى الموت مني إلى الحياة متجهة إلى حجرة مستأجرنا. وأحسب صعودي استغرق مني ساعة بطولها.. ودفعت باب الحجرة، فشهق عندما رآني، فقد ظنني شبحًا، ثم أسرع ليأتيني بجرعة ماء لأني كدت أعجز عن الوقوف على قدمي. وكان قلبي يدق دقًا عاليًا، ورأسي يدور. ولما أفقت وضعت الصرة ببساطة على فراشه، ثم جلست بجوارها، وغطيت وجهي بيدي، وانفجرت باكية. ولابد أنه فهم كل شيء على الفور، لأنه وقف أمامي بوجه شديد الشحوب، وفي عينيه نظرة بالغة الحزن، حتى لقد تمزق لها قلبي وشرع يقول لي:

«أرجوك أن تصغي لي يا نستنكا، ليس في وسعي أن أصنع شيئًا، فأنا رجل فقير، لا أملك حتى الآن شيئًا، ولا وظيفة لائقة لي. فعلى أي شيء نعيش إن أنا تزوجتك؟».

وظللنا نتكلم وقتًا طويلًا. ثم قلت له إنني لم أعد أستطيع الحياة مع جدتي بعد الآن، وإنني سأهرب، وإنني لا أريد أن أرتبط إلى ثوبها بدبوس مزدوج، ولذا سأذهب معه إلى موسكو، سواء أراد ذلك أو لم يرده، لأني لم أعد أستطيع الحياة بدونه. كان كلامي مزيجًا من كل شيء. من الخزي والحب والكبرياء. فقد ثارت هذه المشاعر في أعماقي دفعة واحدة، وسقطت على سريره صريعة نوبة عصبية. فما أشد ما كنت أخشى رفضه.

وظل جالسًا في صمت بضع دقائق، ثم وقف واقترب وتناول يدي في يده وشرع يقول لي والدموع تنساب على وجهه:

«عزيزتي الرقيقة نستنكا.. إصغي لي. أقسم لك إنني لو كنت في وضع يسمح لي بالزواج، فستكونين أنت حتمًا ولا أحد سواك من يمكن أن تسعدني. صدقيني حينما أقول لك أنك الوحيدة التي يمكنها الآن أن تسعدني. إسمعي إذن ما أقول: أنا الآن مسافر إلى موسكو، وسأمكث هناك سنة بالضبط. وعند عودتي -إن كنت لم تكفي عن حبي- أقسم لك أننا سنسعد معًا. أما الآن فهذا مستحيل، فانا لا أستطيع ولا أملك الحق في أن أعرض عليك أو أقدم لك شيئًا على الإطلاق. وأكرر قولي لك، إنه إن لم يحدث هذا بعد سنة، فسيتم حتمًا يومًا ما. ومفهوم طبعًا أن ذلك رهن بألا تفضلي أحدًا غيري عليَ، فأنت حرة، ولا أجسر أن أقيدك بوعد».

وكان هذا كل ما قاله لي، ثم غادرنا في اليوم التالي. وقد اتفقنا على ألا نبوح بأي شيء عن هذا الأمر لجدتي، فهكذا كانت رغبته. وها هي قصتي قد إنتهت تقريبًا. فقد مرت سنة بالضبط، وقد عاد، وله هنا ثلاثة أيام كاملة، و...

فصحت نافد الصبر من اللهفة على سماع ختام القصة:

- وماذا؟.

فأجابت نستنكا بجهد واضح:

- ولم يظهر له أثر بعد. ولم أتلق منه كلمة ولا نامة!

وتوقفت عن الكلام قليلًا، وطأطأت رأسها، ثم خبأت وجهها بين يديها فجأة، وشرعت تنتحب انتحابًا عصر قلبي عصرًا، فلم أتوقع قط مثل هذا الختام لقصتها.

وشرعت أقول لها بصوت متهيب متلطف:

- نستنكا! لا تبكي بحق السماء! ومن أين لك أن تعرفي. فلعله لم يصل إلى هنا بعد.

فصاحت:

- بل هو هنا. هنا. أعرف هذا. فقد رتبنا كل شيء في الليلة السابقة لرحيله. فبعد أن قال كل منا للآخر كل شيء، واتفقنا فيما بيننا على النحو الذي ذكرته لك الآن، خرجنا لاستنشاق شيء من الهواء في عين هذه البقعة التي نحن فيها الآن. وكانت الساعة العاشرة. وجلسنا على هذا المقعد، وكنت قد كففت عن البكاء. وأخذت أصغي منتشية لما كان يقوله، فقال لي أنه سيأتي إليَ لحظة عودته، فإن لم أرفضه أفضينا بكل شيء لجدتي. وهو الآن قد عاد. أعرف هذا. ومع هذا لم يأت؟ وانفجرت باكية مرة أخرى، فصحت وأنا أثب واقفًا في يأس تام:

- يا إلهي! أليس في الوسع عمل شيء. خبريني يا نستنكا، ألعله من المفيد أن أذهب لزيارته؟

فسألتني، وهي ترفع رأسها فجأة:

- أفي وسعك أن تصنع هذا حقًا؟

فأدركت حماقتي، وقلت لها:

- طبعا لا. ولكن عندي فكرة أخرى. أكتبي له رسالة.

فأجابتني بإصرار وعزم:

- لا. لا أستطيع هذا. إنه لا يليق.

ولكنها في الوقت نفسه غضت بصرها وحاولت أن تتجنب نظرتي. فعدت ألح عليها، متحمسًا لإقتراحي:

- ولم لا؟ ولماذا لا يليق بك هذا؟ ولكن يجب أن تكون رسالة من نوع خاص، كما تعلمين. فكل شيء يتوقف على طريقة صياغتها، هذا هو الحل الصحيح يا نستنكا! ثقي بي أرجوك! فما كنت لأشير عليك بما يضرك. وهذا كله مما يمكن إصلاحه. لقد كنت أنت التي أقدمت على الخطوة الأولى. فلماذا لا تكررين هذا الآن؟.

- لا. لا. سأبدو مفرطة الجرأة، مقتحمة.

وابتسمت وأنا أقاطعها قائلة:

- يا عزيزتي الحلوة نستنكا. لن تبدي هكذا. فهذا حقك، ما دام قد وعدك. ثم إنني من كل ما قلته لي أستطيع أن أرى أنه رجل مهذب، كيس، شريف المسلك.

ومضيت في حماستي المتزايدة لمنطقي وقوة إقناعي:

- أنظري كيف كان موقفه.. لقد قطع على نفسه وعدًا. وقال إنه لن يتزوج أحدًا سواك إن تزوج في أي يوم من الأيام. وفي الوقت نفسه ترك لك الحرية التامة لرفضه في أي وقت تشائين. ولذا فلك كل الحق في إتخاذ الخطوة الأولى، أجل لك عليه هذا الحق، وهذه المزية...

- خبرني كيف كنت خليقًا أن تكتبها؟

- أكتب ماذا؟

- هذه الرسالة.

- أقول فيها «سيدي العزيز...».

- ألابد من «سيدي العزيز»؟

- قطعًا. بل لا أدري. ربما...

- لا بأس. إستمر!.

- سيدي العزيز.. يؤسفني أن...» بل أفضل لك ألا تتقدمي بأي إعتذار، فالوقائع نفسها تكفي لتبرير كل شيء. أكتبي ببساطة:

«أكتب إليك هذه الرسالة، وأرجوك أن تغفر لي نفاد صبري، ولكني عشت سنة بطولها على أمل السعادة. فهل ألام على إنني لا أستطيع الآن أن أتحمل يومًا واحدًا من الشك! لقد عدت. وقد تكون غيرت رأيك. وفي هذه الحالة أقول لك بخطابي هذا أني لا أتذمر من هذا، ولا أدينك بسببه. أجل لا أدينك، لأنه لا سلطان لي على قلبك. فهذا قدري! وأنت رجل شريف، ولن تسخر من سطوري هذه النافدة الصبر، ولن تضيق بها. وستتذكر أن التي تكتب إليك هذا فتاة مسكينة وحيدة، ليس لها أحد يرشدها أو ينصحها، ولم تكن لديها القدرة يومًا للسيطرة على قلبها. واغفر لي الشك الذي تسلل لحظة إلى روحي، فأنت غير قادر ولو بالفكر على إيذاء التي أحبتك ولم تزل تحبك»!.

فصاحت نستنكا وعيناها تومضان سرورًا:

- نعم. نعم. هكذا بالضبط فكرت في صياغتها. لقد بددت شكوكي. لقد أرسلك الله لي.. أشكرك! أشكرك!.

فقلت وأنا أنظر بحبور إلى وجهها المتهلل:

- على ماذا؟ على أن الله أرسلني إليك؟

- أجل. لهذا وحده على الأقل.

- آه يا نستنكا! نحن -كما تعلمين- قد نشعر بالعرفان لبعض الناس لمجرد أنهم يعيشون في نفس العالم معنا. وأنا مدين لك بالعرفان لأننا تعارفنا، ولأنني سأظل حتى آخر يوم في عمري أتذكرك!.

حسبك! حسبك! والآن أصغ لما أريد أن أقوله لك: كنا قد رتبنا الأمر فيما بيننا وإتفقنا على أنه بمجرد عودته يخبرني بذلك فورًا، بأن يترك لي رسالة مع أصدقاء لي، وهم أناس طيبون بسطاء لا يعرفون شيئًا على الإطلاق عن هذه المسألة. أما إذا لم يستطع الكتابة لي -لأنك لا تستطيع على الدوام أن تقول كل شيء في رسالة- فعليه أن يأتي إلى هنا يوم عودته بالذات في الساعة العاشرة بالضبط. في هذه البقعة التي كان فيها موعدنا وأعلم إنه وصل، ولكن مضت الآن ثلاثة أيام فلا هو أتى بنفسه، ولا هو ترك لي رسالة. ولن أستطيع مفارقة جدتي أثناء النهار، فهل لك أن تذهب إلى هؤلاء الناس الطيبين الذين حدثتك عنهم غدًا، وتترك رسالتي لديهم؟ وسيتولون إرسالها إليه، وإذا كان هناك رد، عليك أنت أن تحضره بنفسك في الساعة العاشرة مساء.

- والرسالة.. عليك أولًا أن تكتبي الرسالة، كما تعلمين. وفي هذه الحالة لن يتسنى لي الذهاب والعودة إلا بعد غد.

فقالت نستنكا في إرتباك:

- الرسالة... أجل، الرسالة...

ولم تتم عبارتها، فقد أشاحت في البداية عني، ثم أحمر وجهها كالوردة، وفجأة أحسست بالرسالة في يدي، وكانت قط مكتوبة مقدمًا، منذ أمد طويل، ومعنونة ومغلقة.. وومضت في ذهني ذكرى رقيقة حنون، وشرعت أغني:

- رو.. رو.. زي.. زي.. نا. نا!

وغنينا معًا:

- روزينا..

وكدت أحتضنها من فرط سروري، واشتدت حمرة خجلها حتى منابت شعرها، وهي تضحك من خلال الدموع التي كانت تلمع كاللآلئ الصغيرة فوق أهدابها السوداء.. و.

وقالت في استعجال:

- كفى! كفى! وداعًا. وداعًا الآن! وهاك الرسالة، وهاك العنوان الذي ينبغي أن تحملها إليه. وإلى اللقاء غدًا.

وضغطت يدي بحرارة، وأومأت برأسها، ومرقت كالسهم إلى زقاقها، وبقيت حيث كنت فترة طويلة، وأنا أتعقبها بعيني. وما إن توارت عني حتى أخذ عقلي يردد:

- إلى الغد.. إلى الغد.

الليلة الثالثة

كان اليوم مطيراً قمطريرًا، لم تلح فيه لمحة ضوء. كان يومًا شبيهًا بما ستكون عليه أيام شيخوختي، والأفكار الغريبة تتزاحم في داخلي. فأشعر بأشد الغموض، وأحس بمشكلات شديدة الالتباس تحشد في عقلي، ومع هذا لا آنس في نفسي - على نحو ما- القوة أو الرغبة على توضيحها. كلا. ليس في مقدوري أن أحل هذا كله.

لن نتقابل الليلة. والسحب كانت قد شرعت تتجمع في السماء، وإرتفع في الجو ضباب عندما ودع كل منا الآخر في الليلة الماضية. فقلت إن الطقس سيكون سيئًا في الغد، ولم ترد، لأنها لم تشأ أن تخيب أمل نفسها، فاليوم لديها سيكون صافيًا مشرقًا، لا يعكر أفق سعادتنا فيه أهون ظل لسحابة.

وكانت قد قالت:

- إن أمطرت لن يرى كل منا الآخر، ولذا لن آتي.

وحسبت أنها ما كانت لتلحظ المطر الذي سقط اليوم، ومع هذا لم تأت.

وفي الليلة الماضية كان لقاؤنا الثالث، وليلتنا البيضاء الثالثة..

ومع هذا، أي جمال يدركه المرء، ويناله، وهو في غمرة السعادة والفرح! وكم يفيض قلب المرء بالحب! وإنك لتشعر عندئذ أنك تريد أن تسكب كل حبك في قلب آخر، وتريد لكل شيء من حولك أن تتجاوب فيه أصداء البهجة والضحكات.

والفرح... كم هو سريع العدوى! وفي الليلة الماضية كان في كلماتها الكثير من الحنان والرقة، وكان في قلبها حنان عظيم. فكانت غاية في العذوبة معي، وغاية في رعاية مشاعري. وأمدتني بالأمل والشجاعة في نغم مهدهد مدلل.. أي عالم من الغندرة أوحت به سعادتها! وأنا... أنا ظننت أن هذا كله حقيقي، وحسبت أنها...

ولكن يا إلهي.. كيف ظننت هذا؟ كيف أمكن أن أكون بكل هذا العمى، في حين كان كل شيء ينتمي إلى شخص آخر فعلًا. في حين لم يكن شيء من هذا لي. في حين كان حنانها، وتوددها، وحبها -أي نعم! حتى حبها لي- ليست إلا أصداء ابتهاجًا باللقاء القادم مع الآخر، ولهفتها على أن تشركني في سعادتها... لأنها قطبت وعبست، واستولى عليها الفزع والتهيب والانطواء عندما أخلف الميعاد ولم يأت، وكنا قد انتظرنا عبثًا. فأمست كل حركاتها، وكل كلماتها أقل خفة، وأقل مرحًا ودعابة.

والعجيب أنها ضاعفت عندئذ تلطفها واهتمامها بي، كأنما هي تريد بغريزتها أن تغدق عليَ ما كانت شخصيًا تتمناه، وما كانت تخشى أن تفكر في أنه لن يتحقق.

لقد غدت نستنكا شديدة الفزع والارتباك، بحيث أعتقد أنها فهمت أخيرًا إنني أحبها، وأخذتها الشفقة بقلبي المسكين. فعندما نكون تعساء شخصيًا نمسي أشد حساسية لتعاسة الآخرين، وهكذا لا يكون الشعور في هذه الحالة متداعيًا بتأثير الشقاء، بل أشد تركيزًا.

لقد مضيت إليها بقلب فياض بالمشاعر، متلهفًا على حلول ساعة اللقاء. ولم يخالجني هاجس عندئذ أو توجس مما أشعر به الآن.. ولم تحدثني نفسي أن الأمور ستنتهي إلى هذا. كانت مشرقة بالسرور، بل متألقة، في انتظار رده. وكان هو بشخصه المزمع أن يكون هذا الرد. كان هو شخصيًا الذي سيأتي ركضًا تلبية لندائها.

وجاءت إلى مكان اللقاء قبلي بساعة كاملة. وكان كل شيء في البداية يسرها ويسليها، وأخذت تضحك من كل كلمة أقولها.

وأوشكت أن أقول لها ما كان في قلبي، ولكني لم أقله.

وقالت لي:

- أتدري لماذا أنا مبتهجة هكذا؟ لماذا أنا فرحة بك؟ لماذا أحبك إلى هذا اليوم؟

فسألتها، وقلبي يثب في صدري:

- كلا. لماذا؟

فأجابتني:

ـ أحبك هكذا لأنك لم تقع في غرامي. وأي شخص آخر في مكانك كان خليقًا أن يزعجني ويقلقني ويضجرني، ببكائه وتنهداته. أما أنت ففي غاية اللطف!

وعندئذ سحقت يدي بقوة، حتى أنني كدت أصرخ، فضحكت. ثم قالت بكل جد بعد دقيقة صمت:

ـ يا لك من صديق رائع! بل إن الله نفسه أرسلك لي. فكر ماذا كان يمكن أن يكون من أمري لو لم تكن معي الآن؟ أنك أبعد ما تكون من الأنانية! وحبك لي بالغ السخاء والكرم. وسنكون أصدقاء حميمين بعد أن أتزوج، بل ستكون صداقتنا أوثق مما يكون بين الشقيق وشقيقته. وسأحبك حبًا يكاد يضارع حبي إياه.

واستولى عليها الحزن الفظيع لحظة، ولكن شيئًا غير بعيد عن الضحك كان يدغدغ قلبي، فقلت لها:

ـ أنت فريسة نوبة عصبية. أنت في حالة فزع، لأنك تظنينه لن يأتي.

فقالت لي.

ـ بحق السماء لا! ولو كنت أقل سعادة كنت ـفيما أعتقدـ خليقة أن أبكي الآن من تأثير ملامك، وقلة إيمانك. ولكنك مع هذا أعطيتني زادًا لأيام طويلة من التفكير، إلا أني سأفكر في هذا كله فيما بعد. وأعترف لك الآن أن ما قلته لي صحيح. أجل هو صحيح. فأنا شديدة القلق على نحو ما. ولكن حسبنا هذا. ولنترك مشاعرنا جانبا.

وجعلنا وقع الأقدام نجفل، وبرز من العتمة رجل اتجه صوبنا، فارتجفنا كلانا، وكادت تصرخ، فأسقطت يدها من يدي، وهممت أن أتركها. ولكنا كنا واهمين، فلم يكن الرجل القادم هو.

وسألتني، وهي تعطيني يدها مرة أخرى:

ـ ما الذي أخافك؟ لماذا أسقطت يدي؟ ولم لا سنقابله معًا. فأنا أريده أن يرى بعينيه كم يحب كل منا الآخر.

فصحت:

ـ كم يحب كل منا الآخر؟!

وقلت في نفسي:

ـ أوه يا نستنكا! أوه يا نستنكا! ما أعظم ما تنطوي عليه هذه الكلمة الواحدة من معنى! إن حبًا كهذا تثقل وطأته على العقل، ويجمد القلب. يدك باردة، ويدي حارة كالنار. ما أشد عماك يا نستنكا! ولكني لا أستطيع أن أغضب منك!.

وأخيرًا لم أعد أستطيع تمالك مشاعري، فصحت:

ـ نستنكا! أتعرفين ما عانيته في الليلة الماضية؟

ـ لا. ماذا عانيت؟ قل لي بسرعة! ولماذا لم تقل شيئًا عن هذا حتى الآن؟

فقلت لها:

ـ أولًا يا نستنكا، قمت بكل ما كلفتني به من مهام، وسلمت الخطاب في دار أصدقائك، ثم عدت إلى بيتي... عدت إلى بيتي وأويت إلى فراشي لأنام.

فقاطعتني ضاحكة:

ـ أهذا كل شيء؟

فأجبتها بجهد، لأن الدموع كانت تطفر وتتجمع في عيني:

ـ نعم. كل شيء تقريبًا. ولكني استيقظت قبل موعدنا هنا بساعة. إلا أنه بدا لي أني لم أنم إطلاقًا ولست أدري بالضبط ما الذي انتابني. وجئت إلى هنا لأقول لك كل شيء عنه. لأقول لك أن الزمن بدا لي أنه توقف، وأنه منذ اللحظة سيلازمني إلى الأبد شعور واحد وحيد. وإن تلك اللحظة ستتحول إلى أبدية لا نهائية، وكأن الحياة كلها توقفت بالنسبة لي. ولما إستيقظت حسبت أني أستعيد ذكرى معزوفة عذبة كنت أعزفها منذ زمن طويل، سمعتها، ذات مرة في مكان ما، ثم نسيتها. وخيل إليَ أن هذه المعزوفة ظلت تناضل طول حياتي كي تنبجس من قلبي، والآن فقط...

وقاطعتني نستنكا قائلة:

- يا إلهي! يا إلهي! ما هذا كله الذي تقوله؟ وعن أي شيء تتكلم؟ لست أفهم كلمة واحدة مما تقول!

فأخذت أقول في تعاسة، ولكن بصوت لم تزل فيه ذرة رجاء وأمل، ولكنها ذرة صغيرة جدًا:

- آه يا نستنكا! كم كنت أريد أن أحاول... كي أجعلك تفهمين هذا الإحساس العجيب...

فقالت، وقد فهمت كل شيء بذكائها الوقاد في ومضة واحدة:

- صه لا تسترسل!.

وفجأة صارت ثرثارة على غير عادتها، مرحة، لعوبًا. وراحت تمسك ذراعي، وتضحك، وتحاول أن تجعلني أضحك أيضًا، وصارت كل كلمة أقولها وأنا مرتبك تبتعث منها قهقهة الضحك. وأخذ الغضب ينتابني وعلى حين غرة: تغيرت لهجتها وصارت غزلة:

- أتدري إنه ليحيرني بعض الشيء إنك لم تقع في غرامي. قلب المرأة دائمًا تنتابه الحيرة بعد هذا! ولكن لا يسعك أيها الصامد إلا أن تطري صراحتي. فأنا أقول لك كل شيء، مهما كانت سخافة ما خطر ببالي!.

فقلت لها وأنا أصغي لدقات جرس برج المدينة البعيد:

- إسمعي! أهي الحادية عشرة؟

فقطعت ضحكها، وغاصت في الصمت فجأة، وراحت تحصي الدقات الرنانة.

وأخيرًا قالت في صوت هياب مرتجف:

- أجل إنها الحادية عشرة!

وعلى الفور أسفت لأنني أفزعتها وجعلتها تحصي دقات الساعة. ولعنت نفسي لنوبة الخبث التي انتابتني. وأحزنني كربها، ولم أدر كيف أكفر عن ذنبي. وشرعت أعزيها، وأخترع له المعاذير، وأحاول أن أقنعها بأن تأخيره في القدوم له مبرراته. ولم يكن في الدنيا أحد أسهل إقتناعًا من نستنكا في لحظة مثل هذه. أو على الأصح ينبغي أن أقول أن أي شخص في لحظة مثل هذه خليق أن يصغي بسرور لأي لون من ألوان التعزية، وأن يشعر بالراحة إن أمكنه العثور على أي عذر، مهما كان هينًا واهنًا.

وقلت لها، وأنا أزداد حماسة وحرارة، وأتمجد في لطافة حججي وتبربراتي.

- إنه لأمر مضحك حقًا، لو تعلمين. فما كان بوسعه بأي شكل أن يأتي! لقد خدعتني وضللتني يا نستنكا، حتى اختلطت في رأسي كل عوامل الزمن. فكري قليلًا. فالخطاب لم يكن من المعقول أن يكون قد وصل إليه بعد. ولنفرض أنه عجز عن الحضور، أو أنه يكتب الآن رسالة يرد بها عليك. وفي هذه الحالة لن تصل إليك هذه الرسالة قبل الغد! سأذهب بنفسي أحضرها في أسرع وقت ممكن غدًا، وسأبلغك النتيجة فورًا. وحاولي أن تتخيلي ألوف الأشياء غير المتوقعة التي من الممكن أن تحدث. فماذا مثلًا لو أنه لم يكن موجودًا عندما وصلت رسالتك؟ بل من الممكن جدًا ألا يكون قد أطلع عليها حتى الآن! إن أي شيء ممكن أن يكون قد حدث.

فقالت نستنكا:

- طبعًا. طبعًا! لم أفكر في هذا قط. ومن الممكن جدًا أن يكون أي شيء قد حدث.

واسترسلت في لهجة تدل على منتهى الصبر والإذعان، ولكن شابتها مع ذلك نبرة تدل على عدم إقتناع غامض:

- وإليك الآن ما يجب عليك أن تقوم به. إذهب إلى هناك في أقرب وقت تستطيعه غدًا صباحًا. وإن وجدت ردًا، أخبرني بذلك على الفور. وأنت تعرف أين أقطن. أليس كذلك؟

وذكرت لي عنوانها مرة أخرى. وبعد هذا صارت في غاية العذوبة معي، وفي غاية الرقة والحنان. وبدا عليها أنها مصغية بكل إنتباه لكل ما أقوله لها، ولكن عندما وجهت إليها سؤالًا مباشرًا، لم تجبني، وأشاحت بوجهها عني في حرج واضح. فنظرت في عينيها. أجل... كانت تبكي!.

وصحت بها:

- ويحي! ويحي! يا لك من طفلة! ما كل هذه الطفولة؟ هوني عليك.

وحاولت أن تبتسم، وتستجمع نفسها، ولكن ذقنها ارتجف، ولم يزل صدرها يعلو يهبط.

وقالت بعد برهة:

- إنما أفكر فيك أنت. ما أطيبك! وما كنت لأعجز عن الشعور بطيبتك إلا لو كان قلبي من حجر صلد. أتدري ما الذي خطر لي الآن؟ أكنت أقارن بينكما. لماذا لم يكن هو... أنت؟ لماذا لا يكون مثلك؟ فأنت خير منه، وإن كنت أحبه أكثر.

ولم أرد بشيء إطلاقًا، ويبدو أنها كانت تتوقع أن أقول شيئًا. فاستطردت قائلة:

- قد يكون مرجع هذا إنني لم أفهمه تمامًا بعد. ولم أعرفه بعد معرفة كافية. وأحسب أنني كنت دائمًا خائفة منه، فقد كان دائمًا شديد الجد، بل شديد الكبرياء على نحو ما. وأعرف طبعًا أن هذا مجرد مظهر خارجي، وأن في قلبه من الرقة والحنان ما يفوق ما بقلبي منهما. وأذكر جيدًا كيف كان ينظر إليَ حينما ذهبت إليه بصرة ثيابي. ولكني مع هذا أعتقد إني شديدة الاحترام له، وهكذا يبدو أننا لسنا ندين تمامًا. أليس كذلك؟.

فقلت لها:

- لا يا نستنكا. بل معناه أنك تحبينه أكثر من أي شيء في العالم، بل أكثر مما تحبين نفسك.

فوافقتني الفتاة البسيطة القلب قائلة:

ـ نعم. أظن هذه هي الحقيقة. ولكن أتعرف ماذا خطر لي الآن؟ إن هذا لا علاقة له به إطلاقًا، فأنا أتكلم بصفة عامة، وكان هذا الأمر يراود ذهني منذ وقت طويل. لماذا لا يمكن أن نكون جميعًا أخوة؟ لماذا يخفي -حتى أفضل الناس- أشياء معينة، يجعلونها سرًا على الآخرين؟ لماذا لا يصرحون بالكلام الواضح عن كل ما يدور في حنايا صدورهم، إن كانوا يعنونه حقًا؟ كلا! بل يحاول كل منهم أن يبدو متجهمًا متباعدًا أكثر من حقيقته، كأنما يسيء إلى كرامته ويهين مشاعره أن يصرح بها قبل الأوان!.

فقلت لها، وأنا أعاني من كبح مشاعري الخاصة عندئذ أكثر من أي وقت مضى.

ـ آه يا نستنكا. إن ما تقولينه صحيح. ولكن هناك أسبابًا كثيرة له.

فصاحت، وقد تأثرت تأثرًا عميقًا:

ـ كلا. كلا! أنت مثلًا لست كالآخرين. أنا في الحقيقة لا أدري ما هي أفضل عبارة أقول لك بها ما أشعر به. ولكن يخيل إليَ أنك.. مثلًا.. يبدو لي أنك تضحي بشيء ما في سبيلي.

ورمقتني بنظرة كان لها وقع الرفيف، وأردفت:

ـ يجب أن تغفر لي قولي هذا. فما أنا إلا فتاة ساذجة، ولم أر الكثير من أحوال الدنيا بعد، ولست أدري في الواقع كيف أقول ما في ذهني..

وأخذ صوتها يرتجف بانفعال خفي، حاولت أن تموهه بإبتسامة، واستطردت قائلة:

ـ كل ما هنالك أنني أردت أن أقول لك كم أنا شاكرة لك، وإن في وسعي أن أشعر بكل ما صنعته لي. كتب لك الله السعادة جزاء وفاقًا! أما كل تلك الأمور التي حدثتني بها عن بطلك الحالم ذاك اليوم، فليس منها شيء صحيح، أعني أنه لا صلة لها بك إطلاقًا. فأنت مختلف في الواقع تمام الاختلاف عن الوصف الذي وصفت به نفسك. فإن حدث لك أنك أحببت إنسانة، أتمنى لك كل سعادة معها. أما هي فليس عندي شيء أتمناه لها، لأنها ستكون سعيدة حقًا معك. وأنا أعلم أني امرأة أيضًا، يجب أن تصدقني حينما أقول لك هذا.

وسكتت، وراحت تضغط يدي بحرارة. ولم أستطع أنا أيضًا أن أقول شيئًا من فرط جيشان مشاعري. ومرت علينا بضع دقائق ونحن على هذا الحال.

وأخيرًا قالت، وهي ترفع رأسها:

- واضح أنه لن يأتي الليلة. فالوقت متأخر.

فقلت بأثبت صوت وأقطع لهجة وأدلها على الإقتناع:

- سيأتي غدًا.

فقالت وهي تستعيد إشراقها:

- نعم. إني أتبين هذا الآن. سيأتي غدًا. والآن وداعًا! وإلى الغد! وإذا أمطرت لن آتي، ولكني سآتي بعد غد، يقينًا، مهما حدث. ويجب أن تأتي أنت أيضًا، فأنا أريدك أن تأتي. وسأخبرك بكل شيء.

وعندها هممنا بالافتراق، أعطتني يدها وقالت وهي ترمقني ببراءة:

- سنكون دائمًا معًا. أليس كذلك؟

أوه يا نستنكا! ليتك تدرين كم أنا وحيد مستوحش الآن!

وعندما دقت الساعة تسع دقات لم أعد أطيق المكث في حجرتي. فارتديت ثيابي، وخرجت برغم المطر. وتوجهت إلى هناك وجلست على المقعد الخشبي، ثم قمت ودخلت زقاقها، ولكني شعرت بالخزي وعدت من غير أن ألقي ولو نظرة واحدة على نوافذها، لأني درت على عقبي قبل أن أصل إلى دارها.

وعدت إلى حجرتي في حال من اليأس البالغ، لم أعرفها من قبل. يا له من يوم مطير كئيب! لولا هذا الطقس للبثت أتجول هناك طول الليل.

ولكن إلى الغد! إلى الغد! فغدا ستخبرني بكل شيء.

لا خطاب اليوم أيضًا. ولكن لا لزوم لهذا. فهما الآن معًا!

الليلة الرابعة

يا إلهي؟ ما أهول النهاية التي ختم بها الأمر كله!

جئت في الساعة التاسعة. ووجدتها هناك من قبلي. رأيتها وأنا لم أزل على مبعدة، وكانت واقفة متكئة على السياج، على نحو ما رأيتها في تلك الليلة الأولى. ولم تسمعني وأنا أقترب منها.

وناديتها، وأنا أغالب ما بي من إثارة:

ـ نستنكا.

والتفتت على الفور، وقالت:

ـ أعطنيها على الفور!.

ووقفت أرنو إليها في حيرة، فعادت تقول، وإحدى يديها متشنجة على السياج:

ـ أين الرسالة؟ هل أتيت بها؟

وأخيرًا قلت لها:

ـ لا. لا رسالة معي. ألم تريه بعد؟

فشحب وجهها شحوبًا شديدًا، وحدقت فيَ برهة طويلة. لقد حطمت آخر أمل لديها. ثم قالت في صوت متضعضع:

ـ دعه وشأنه. دعه وشانه، إن كان يريد أن يتركني هكذا...

وغضت بصرها، ثم أرادت أن تنظر في عيني، إلا أنها لم تستطع. وناضلت كي تسيطر على انفعالاتها بضع دقائق. وبعدها أشاحت عني فجأة، ومالت فوق السياج، وإنفجرت باكية.

وشرعت أقول لها:

- على رسلك!

بيد أني لم اجد المقدرة على المضي في الكلام وأنا أنظر إليها ثم ما الذي كان يمكن أن يقال؟

وقالت لي من خلال دموعها:

- لا تحاول تعزيتي. لا تحدثني عنه لا تقل لي أنه سيأتي، لا تقل لي أنه لم يتخل عني بكل قسوة، وبلا إنسانية. ولكن لماذا؟ لماذا لم يكن في رسالتي -يقينًا- ما يسوء. أم ترى كان فيه شيء من هذا

وكفت عن الكلام، وهي تشهق بالبكاء، وتقطع قلبي وأنا أنظر إليها. وأردفت تقول:

- ما أشد قسوته! ولا سطر واحد! كان في وسعه على الأقل أن يكتب ويقول لي أنه لم يعد يريدني. وإنه ينبذني. ولكن لا سطر منه في ثلاثة أيام كاملة لكم يستسهل أن يهين ويجرح فتاة مسكينة لا حامي لها، كانت كل غلطتها أنها تحبه! لكم قاسيت في هذه الأيام الثلاثة! يا إلهي! يا إلهي! كلما تذكرت أنني أنا التي ذهبت إليه تلك المرة الأولى، واتضعت أمامه، باكية مسترحمة أسأله الحب، وأستجدي منه ولو قطرة حب واحدة! وبعد هذا كله...

والتفتت نحوي فجأة وقد لمعت عيناها وأردفت:

- إسمع! ليس الأمر هكذا. لا يمكن أن يكون هكذا. هذا غير معقول. لقد إرتكب أحدنا غلطة، إما أنت أو أنا. ألعله لم يتسلم رسالتي بعد! ألعله لم يزل يجهل كل شيء عنها؟ فكيف يمكن لأي أحد -وأناشدك الله أن تحكم بنفسك وتفسر لي هذا لأني عاجزة عن فهمه- كيف يتسنى لأي إنسان أن يعامل أي أحد بكل هذه الوحشية والقسوة اللتين عاملني بهما؟ ولا كلمة واحدة يوجهها إليَ! أن أحقر وأتفه المخلوقات لتستحق أن يظهر لها المرء تعاطفًا أكثر من هذا. ألعله سمع عني شيئًا؟ ألعل أحدًا وشى بي لديه؟.

وأخذت تنتحب، ثم توجهت إليَ بسؤالها الأخير:

- ما رأيك؟

- إسمعي يا نستنكا. سأذهب وأكلمه بإسمك غدًا.

- ثم..

- سأساله عن كل شيء. وأقول له كل شيء.

- وبعد هذا..

- ستكتبين إليه خطابًا. لا تقولي لا يا استنكا، لا تقولي لا. وسأجعله يحترم تصرفك.. سيعرف كل شيء، وإذا...

فقاطعتني قائلة:

- لا يا صديقي. لا. حسبك! لن أكتب إليه كلمة واحدة. ولا سطرًا واحدًا. كفى مهانة! أنا لا أعرفه، ولم أعد أحبه. وسأنساه...

ولم نستطع الإستمرار، فسكت. وقلت لها وأنا أجلسها على المقعد الخشبي:

- اسكتي الآن، وتمالكي نفسك. إجلسي هنا يا نستنكا!

- ولكني متمالكة نفسي. لا تقلق، فليس بي شيء. إن هي إلا قطرات من الدمع، وستجف. أحسبتني موشكة أن أضع حدًا لحياتي، بالقفز إلى النهر؟.

وكان قلبي يتقطع. وأردت أن أتكلم، ولكني لم أستطع أن أنطق بكلمة. وقالت وهي تتناول يدي في يديها:

- خبرني! ما كنت أنت لتصنع شيئًا من هذا. أليس كذلك؟ ما كنت لتتخلى عن تلك التي أتت إليك من تلقاء نفسها، وما كنت لتقذف في وجهها باحتقارك القاسي الصلد لقلبها المسكين الأحمق؟ أما كنت تسبغ عليها رعايتك؟ أما كنت تدرك أنها وحيدة، ولم تعرف كيف بدأ هذا الأمر، ولم تدر كيف تحمي نفسها من حبها إياك، وإنها غير ملومة، وأن الخطأ ليس عليها.. وأنها لم ترتكب إثمًا. آه يا إلهي!

فصحت بها، ولم أحد مسيطرًا على مشاعري:

- نستنكا! نستنكا! إنك تعذبينني! وتحطمين قلبي، بل تقتلينني يا نستنكا! لا يمكنني أن أظل صامتًا. لابد لي من الكلام، ويجب على الأقل أن أعري أمام ناظريك كل ما ينوء به قلبي.

ونهضت من المقعد الخشبي وأنا أقول هذه العبارة، فتناولت يدي ونظرت إليَ في دهشتي وأخيرًا قالت:

- ماذا بك؟

فقلت بعزم:

- نستنكا. إصغي لي يا نستنكا! ما أنا بسبيل قوله لك ليس إلا حلمًا ميئوسًا منه. وأعلم أنه لن يتحقق، ولكني لا أستطيع الآن أن ألوذ بالصمت. وأناشدك بإسم ما يعذبك الآن أن تغفري لي سلفًا!

.

فجفت مقلتاها، وثبتتا على عيني ببريق غريب يجمع بين الفضول والدهشة، وقالت:

- ولكن الحكاية؟ عن أي شيء تتكلم؟

فقلت وأنا أرمي إيماء اليائس:

- أعلم أنه لا أمل، ولكني أحبك يا نستنكا! هاك! ها أنا قلت لك كل شيء الآن! ولك بعد هذا أن تحكي هل تسترسلين في كلامك معي على النحو السابق. وهل تستطيعين الإصغاء، لما أريد أن أقول لك؟

فقاطعتني نستنكا قائلة:

- ولكن لم لا؟ وماذا في هذا؟ أنا طبعًا كنت أعرف طول الوقت أنك مهتم بي، ولكنني ظللت أقول لنفسي أنك كنت تحبني بصورة مختلفة، لا بهذه الصورة.

- كان الأمر كما تقولين في البداية يا نستنكا. أما الآن، فأشعر بمثل شعورك عندما ذهبت إليه بصرة ملابسك. بل أشعر بما هو أسوأ من هذا، يا نستنكا، لأنه لم يكن يحب غيرك، وأنت تحبين غيري.

- ما هذا الذي تقوله لي؟ لست أفهمك إطلاقا. ولماذا.. أقدمت.. هكذا فجأة.. بحق السماء! أراني أهذي! ولكنك...

وارتبكت نستنكا ارتباكًا تامًا، وأحمر خداما فصارا بلون القرمز، وغضت بصرها حياءً.

- ولكن ماذا عساي أصنع يا نستنكا؟ ماذا عساي أصنع؟ أنا المخطئ. فقد إنتهزت... ولكن لا. أني أشعر بذلك يا نستنكا. وأسمعه أيضًا من قلبي، لأن قلبي يحدثني أنني على صواب. فما كنت أستطيع أن أؤذيك، أو أهينك! لقد كنت صديقك. بل لم أزل صديقك. ولم أخن ثقتك. أترين هذه الدموع التي تنهمر على وجهي يا نستنكا؟ دعيها تنهمر. دعيها. لا ضرر منها. وسوف تجف من تلقاء نفسها يا نستنكا.

فقالت وهي تجذبني لأجلس بجوارها:

- إجلس، إجلس. ويحي.

- كلا يا نستنكا. لن أجلس. لا أستطيع البقاء هنا بعد الآن. ولن تريني بعد الآن. سأقول لك كل شيء وأمضي. إنما أردت فقط أن أقول لك أنك ما كان من الممكن أن تعرفي شيئًا عن حبي إياك. كنت خليقًا أن أكتم عنك سري. وما كنت لأفكر في تعذيبك في وقت كهذا بأنانيتي. ولكن المسألة كانت أكبر من طاقة احتمالي، وأنت الملومة على كل شيء، فأنت التي فتحت هذا الموضوع، والخطأ خطؤك. ولا ذنب لي فيه. ولن تستطيعي إبعادي عنك.

فقالت تستنكا باذلة أقصى جهدها -هذه المسكينة- كي تخفي ارتباكها:

- ولكني لا أحاول إبعادك عني. كلا!

- ألن تبعديني عنك؟ كلا؟ وأنا الذي كنت على وشك الهرب منك من تلقاء نفسي. سأبتعد، ولكني قبل ذلك سأخبرك بكل شيء، لأني لم أكد أستطيع مغالبة نفسي وأنت تتكلمين الآن، وعندما كنت تبكين وتعذبين نفسك بالتفكير في أنك... في أنك (وإغفر لي يا نستنكا الإشارة إلى هذا) منبوذة، وأن حبك قوبل بالإزدراء، عندئذ شعرت وعرفت أن لك في قلبي حبًا عظيمًا جدًا عظيمًا جدًا يا نستنكا! وأحزنني كثيرًا ألا أستطيع مساعدتك بحبي هدا، فتحطم قلبي، ولم أعد قادرًا على السكوت. وكان لابد لي أن أتكلم يا نستنكا. كان لابد لي أن أتكلم!.

فقالت نستنكا بإنفعال لا يمكن تحديده:

- إستمر. إستمر، كلمني. كلمني بهذا الشكل... وقد يبدو لك غريبًا أن تسمعني أقول لك هذا، ولكن تكلم! تكلم! وسأخبرك بكل شيء بعد هذا، سأخبرك بكل شيء!

- أنت ترثين لي يا نستنكا.. ما تقولينه رثاء وشفقة يا صديقتي الصغيرة! إن ما حدث قد حدث وانتهى الأمر! ولا يمكن الرجوع فيما قيل. أليس كذلك؟ وها أنت تعرفين الآن كل شيء. فإجعلي هذا نقطة البداية. حسن جدًا. كل شيء بديع الآن! ولكن اسمعيني حتى النهاية. عندما كنت جالسة هناك تبكين، قلت في نفسي (ودعيني أقل لك ماذا كنت أفكر) قلت لنفسي أنك... ربما لم تعودي تحبينه. وكنت قد فكرت في هذا الليلة الماضية، والليلة التي قبلها أيضًا يا نستنكا. وعندئذ قلت لنفسي إنني خليق أن أصنع شيئًا، وأنك ربما تكونين... قد أحببتني. حسن جدًا.. ماذا كنت أريد أن أقول؟ يبدو أنني قلت كل ما هناك. وأستطيع أن أخبرك الآن كيف يمكن أن تكون الأمور لو أنك أحببتني. والآن أصغي يا صديقتي العزيزة،لأنك بعد كل شيء صديقتي. أنا رجل عادي طبعًا، وفقير، وتافه، ولكن ليس هذا الموضوع (يبدو أنني أتكلم بغير نظام، والسبب في هذا تهيبي وخجلي يا نستنكا) بل الموضوع أنني أحببتك جدًا، أحببتك بحيث أنك لن تستطيعي الشعور بوطأة حبي بأي حال من الأحوال، حتى ولو ظللت تحبين الرجل الآخر الذي لا أعرفه. وكل ما يمكن أن تشعري به هر دقات قلبي بجوار قلبك بإستمرار، وإنه لقلب شكور متقد العاطفة، سيظل ملك يمينك إلى الأبد. أوه يا نستنكا! نستنكا! ماذا صنعت بي!.

فقالت نستنكا، وهي تنهض بسرعة من المقعد الخشبي:

- أرجوك لا تبك. لا أريدك أن تبكي، هيا إنهض. وتعال معي. لا تبك الآن. لا تبك.

ومسحت لي دموعي بمنديلها وأردفت:

- هيا تعال الآن. قد يكون عندي ما أقوله لك. الآن وقد هجرني وتخلى عني، الآن وقد نسيني، ومع إنني لم أزل أحبه (فلست أريد أن أخدعك).. ولكن قل لي. أجبني.. لو أنني أحببتك يومًا ما.. آه يا صديقي! كلما تذكرت كيف جرحتك عندما سخرت من حبك، وأثنيت عليك لعدم وقوعك في غرامي! كيف لم أتوقع هذا؟ لماذا لم أتوقعه؟ ما كان أغباني! والآن قررت أن أقول لك كل شيء.

- انتظري يا نستنكا! أعتقد إنني ينبغي أن أتركك في سلام وأمضي. فلست أحب أن أعذبك. لقد بدأ ضميرك يقلقك لأنك سخرت، أو ضحكت مني. وأنا لا أريد هذا. كلا. لست أريده. فلديك أحزانك التي عليك أن تتحمليها. إنها غلطة طبعًا. وداعًا يا نستنكا!.

- قف. إنتظر. أصغ لي

- أنتظر؟ وماذا أنتظر؟

- أنا أحبه. ولكن هذا سيمر وينقضي. لابد أن ينقضي. بل أنه ينقضي الآن ويزول. أشعر بهذا... من يدري. لعله ينتهي ويزول هذه الليلة بالذات، لأني أكرهه، فقد عاملني باحتقار، أما أنت فبكيت معي، إنك تحبني، ولذلك لم تتخل عني كما صنع هو، لأنه لم يحبني قط. ثم أنا أحبك أيضًا... أجل، أحبك... أحبك كما تحبني! لقد قلت لك هذا من قبل. أحبك لأنك أفضل منه، ولأنك أشرف منه، ولأنك. لأنك...

يا لنستنكا المسكينة! إنها مغلوبة على أمرها. ولا تستطيع مواصلة الكلام. ووضعت رأسها على كتفي، ثم هبطت بها فوق صدري، وراحت تبكي بحرقة. وحاولت أن أسري عنها، وأهدئها. ولكنها لم تستطع حبس دموعها، وراحت تضغط على يدي، وتكرر لي وسط شهقاتها:

- دقيقة واحدة. لحظة واحدة. سأكف الآن. أريد أن أقول لك... أتظن هذه الدموع تعني شيئًا؟ إنما أبكي عن ضعف ليس إلا. وبعد لحظة سأكف عن البكاء...

وأخيرًا توقفت عن النحيب، وجففت دموعها، ومشينا. وكنت على وشك الكلام، ولكنها رجوت مني أن أنتظر. وغرقنا كلانا في بحر من الصمت. وأخيرًا استطاعت أن تستجمع قواها وشرعت تتكلم بصوت ضعيف غاص إلى قلبي:

- الآن إسمع. إياك أن تظن أني متقلبة في عواطفي، كلا!. ولا تحسين أني مستطيعة أن أنسى بهذه السهولة وهذه السرعة، أو أني قادرة على الخيانة... لقد أحببته سنة كاملة، وأقسم بالله العظيم أنني قط، قط، لم أخنه في أي فكرة من أفكاري... لقد هزأ بإخلاصي، وسخر مني. دعه وشأنه! ولكنه جرحني أيضًا، وأهانني وأهان حبي... أنا... أنا لا أحبه. لأنني لن أستطيع أن أحب إلا شخصًا كريمًا، فاهمًا، شريفًا، هكذا أنا. ولذا فهو لا يستحقني. ولندعه وشأنه! وخيرًا صنع، فالأمر خليق أن يكون أسوأ بكثير لو أن أملي فيه خاب فيما بعد، بعد أن أعرفه على حقيقته... أما الآن فقد إنقضى كل شيء!.

وأردفت، وهي تحيط أصابعي بأصابعها:

- ولكن من يدري يا صديقي الحنون! من يدري. لعل حبي هذا كان شيئًا أشبه بالسراب، لعبة من أوهام خيالي. ولعله بدأ بالتمرد، لأنه لم يكن مسموحًا لي بالغياب عن جوار جدتي! ربما لم يكن هو الذي كنت خليقة أن أحبه، بل آخر، مختلفًا عنه، يعطف عليَ ويرثي لي. كلا! لنترك هذا الحديث..

وقاطعت نستنكا نفسها فجأة وكفت عن الكلام وهي تلهث لشدة ما أستثيرت إنفعالاتها. ثم إستطردت بعد قليل.

- إنما أردت فقط أن أقول... أردت فقط أن أقول لك. أنه رغم حبي إياه (كلا. بل برغم أنني كنت أحبه) أنه برغم هذا، قلت مرة أخرى، وإذا شعرت أن حبك عظيم جدًا، بل من العظمة بحيث يطرد حب الآخر من قلبي... وإن أردت أن تشفق عليَ، ولم ترد أن تتركني لمصيري وحدي... وحيدة.. منبوذة، لا أعرف العزاء.. وبلا أمل، وأردت أن تحبني إلى الأبد نفس هذا الحب الذي تشعر به نحوي الآن، فأقسم لك أن عرفاني، وحبي، سوف يكونان جديرين بحبك. فهل نتصافح إيذانًا بالاتفاق على هذا؟

فبكيت، حتى هزتني شهقاتي وقلت:

ـ نستنكا! نستنكا!.

فقالت، بشيء من الجهد:

ـ كفاك. كفاك. لقد قيل الآن كل شيء، أليس كذلك؟ أنت الآن سعيد، وكذلك أنا، لا تقل كلمة أخرى في هذا الشأن. ليس الآن، رحمة بي! تكلم في شيء آخر، بحق السماء!.

ـ نعم يا نستنكا! بالطبع. كفى كلامًا في هذا الموضوع. أنا الآن سعيد. أنا... أجل، لنتحدث في شيء آخر يا نستنكا. لنبحث عن موضوع آخر بسرعة..

ولم نجد موضوعًا آخر نتحدث فيه، فضحكنا، وبكينا، وقلنا ألف شيء لا معنى له، في كلمات مفككة. ومشينا جيئةً وذهابًا على الشط، ثم عدنا على أعقابنا وعبرنا الشارع. وهناك وقفنا ورجعنا أدراجنا إلى السياج مرة أخرى. كنا أشبه بطفلين...

وشرعت أقول لها:

ـ أنا أعيش وحيدًا تمامًا الآن... ولكني غدًا... أنت طبعًا تعرفين أني فقير، يا نستنكا. كل ما أملكه إيراد لا يتجاوز ألفًا ومائتين في السنة، ولكن هذا لا يهم.

ـ طبعا لا يهم، ثم أن جدتي لديها معاش، ولن تكون عبئًا علينا، فلابد أن نأخذ جدتي لتعيش معنا.

ـ طبعًا لابد أن نأخذها... ثم هناك متريونًا...

ـ نعم. ونحن لدينا أيضًا فيوكلا.

ـ ومتريونا ذات نفس طيبة، وعيبها الوحيد أنها عديمة الخيال، لا خيال لديها إطلاقا، يا نستنكا، ولكن هذا لا أهمية له.

ـ لا بأس. ويمكنهما الإقامة والمعيشة معًا، هي وفيوكلا. ولكن لابد لك أن تنتقل إلى بيتنا غدًا.

ـ ماذا تعنين؟ إلى بيتكم؟ وهو كذلك، أنا مستعد.

- نعم. ستسكن لدينا. فعندنا علية تحت السقف، وهي خالية حاليًا. وكانت تقيم لدينا سيدة عجوز، بيد أنها انتقلت إلى بيت آخر، وأعلم أن جدتي تريد تأجير الحجرة الخالية لشاب. فقلت لها: «ولماذا الشاب؟» فأجابتني «لسبب بسيط، هو أنني أتقدم في السن. ولكن لا تتصوري أني أحاول تزويجك بهذه الطريقة يا نستنكا» وهكذا عرفت على الفور أن هذا هو السبب!.

- آه يا تستنكا.

وأخذنا نحن الإثنين نضحك. ثم سألتني:

- كفى ضحكًا الآن؟ أين تقيم؟ لقد نسيت أن أسألك عن عنوانك.

- هناك، بقرب الجسر، في بيت بارانيكوف.

- إنه بيت كبير جدًا. أليس كذلك؟

- بل. بيت كبير جداً.

- أعرف فهو بيت جميل، ولكن أتركه وانتقل إلى بيتنا بأسرع ما تستطيع.

- سأفعل. مشي طلع النهار يا نستنكا، وأنا مدين بجزء من الإيجار، ولكن لا أهمية لهذا، فسوف أتسلم راتبي قريبًا.

- أنا في استطاعتي -كما تعلم- أن أعطي دروسًا. أعني أني سأدرس وأتعلم، ثم أعطي دروسًا.

- هذا بديع يا نستنكا... وأنا أيضًا سأحصل على نفحتي قريبًا.

- إذن ستغدو مستأجري منذ الغد..

- أجل، وسنذهب معًا إلى «حلاق أشبيلية»، لأنهم سيعيدون عرضها قريبًا.

فقالت نستنكا باسمة:

- نعم. هيا نذهب لنشاهدها. بل لا! أفضل أن نذهب لنرى شيئًا آخر غير «حلاق أشبيلية».

- وهو كذلك. لنذهب إلى شيء آخر، فهنا أفضل طبعًا. وآسف جدًا لأن هذا لم يخطر لي من قبل.

وظللنا نتجول ذهابًا وجيئةً ونحن نتكلم على هذا المنوال، كأننا مخموران، لا نعرف ما الذي يحدث لنا. وكنا نقبل إلى بقعة ما، ونقف ونتكلم حيث نحن فترة طويلة، أو نستأنف السير ذاهبين الله أعلم إلى أين، ونضحك مرة أخرى، أو نبكي من جديد. أو تبدي نستنكا رغبتها في العودة إلى بيتها، فلا أجرؤ على استبقائها. ولكني أريد أن أوصلها إلى عتبة دارها، وننطلق إلى هناك، وإذا بنا نجد نفسينا على الشط مرة أخرى، جالسين على مقعدنا الخشبي. أو تتنهد نستنكا وتلمع الدموع في عينيها من جديد، فيغوص قلبي، ويتجمد دمي، ولكنها في اللحظة التالية تضغط على يدي بشدة، كأنها تعصرها، ثم تجذبني لنمشي مرة أخرى ونثرثر ونتكلم.

وأخيرًا قالت نستنكا:

- حان الوقت الآن. آن لي حقًا أن أعود إلى البيت. فلابد أن الوقت صار متأخرًا جدًا. وقد سلكنا سلوك الأطفال وقتًا كافيًا جدًا.

- فعلًا يا نستنكا، ولكني لن أستطيع النوم الآن. ولن أعود الليلة إلى البيت إطلاقا.

- وأنا لا أحسبني سأستطيع النوم أيضًا، ولكن خذني من فضلك إلى البيت.

- طبعًا.

- ولكننا هذه المرة يجب أن نذهب إلى البيت حقًا.

- طبعًا سنذهب..

- أهذا وعد؟ فلابد لي -كما تعلم- من العودة إلى البيت في وقت ما.

فأجبتها ضاحكًا...

- أعدك بهذا.

- إذن هيا بنا.

ـ هيا... والآن أنظري إلى السماء يا نستنكا. أنظري! سيكون الغد يومًا رائعًا. وانظري إلى القمر، وإلى زرقة السماء! وهذه السحابة الصفراء التي ترينها هناك تزحف فوق القمر. أنظري! ها هي قد إنجابت عنه، أنظري الآن. أنظري!.

ولكن نستنكا لم تكن ناظرة إلى القمر، بل وقفت كالمسمرة في مكانها، ولم تقل شيئًا، وعندئذ أحستها تلتصق بي في وجل وحياء، وشعرت بيدها ترتجف في يدي. ونظرت إليها، فازدادت إتكاء على ذراعي.

ومر بنا في سيره شاب، وقف فجأة، وحدق فينا، ثم استأنف طريقه، وغاص قلبي، فقلت لها همسًا:

ـ نستنكا! من هذا يا نستنكا؟

فهمست، وهي تزداد التصاقًا بي، بمزيد من الوجل:

ـ إنه هو!

وسمعنا من خلفنا صوتًا يهتف ثاقبًا:

ـ نستنكا! نستنكا! أهو أنت؟

وفي الوقت نفسه خطا الشاب بضع خطوات نحونا.

ويا للصرخة التي أطلقها، يا إلهي، ويا لإجفالها عند سماع صوته! ثم إنفلتت من بين ذراعي وطارت إليه... ووقفت أرقبهما وقد أحسست أني أنسحق إنسحاقًا! ولكنها ما إن أعطته يدها،

وإرتمت بين ذراعيه، حتى إلتفتت إليَ، وعادت إلى جواري مرة أخرى، وفي مثل ومض البرق أو سرعة الريح، وقبل أن أستجمع صوابي، كانت قد ألقت بذراعيها حول عنقي، وقبلتني قبلة حارة عنيفة. ثم من غير أن تقول لي كلمة واحدة، إندفعت عائدة إليه، وتناولت يديه في يديها، وجذبته معها إلى بعيد...

ووقفت مشدوهًا برهة طويلة، أرقبهما يبتعدان، إلى أن اختفيا أخيرًا عن نظري.

الصباح

وضع الصباح حدًا لليالي. وكان نهارًا تعسًا. المطر كان ينهمر، ويدق وابله نوافذي بإيقاع حزين. وحجرتي الصغيرة كانت معتمة، لأن السماء كانت مغطاة بالغيوم. وكان رأسي يدق، ويدور، والحمى تزحف على أطرفي.

وقالت لي متريونا، وقد رأيتها واقفة فوق رأسي:

- هذه رسالة لك يا سيدي، جاء بها ساعي البريد. رسالة بالبريد.

فصحت، واثبًا من مكاني على المقعد:

- رسالة.. ممن؟.

- هذا ما لا علم لي به يا سيدي! أنظر فيها تعرف من عساه أرسلها.

وفضضتها. وكانت الرسالة منها!.

كتبت نستنكا تقول:

«أغفر لي. أغفر لي. أتوسل إليك راكعة على ركبتي أن تغفر لي وتصفح عني! فقد خدعت نفسي وخدعتك. كان حلمًا. كان شبحًا. وقلبي يتوجع لك اليوم، فاغفر لي. اغفر لي.

«لا تقس في الحكم عليَ، لأن قلبي لم يتغير من جهتك إطلاقا! لقد قلت لك أني أحبك، وإني لأحبك. بل إني أكثر من أحبك! يا إلهي! ليتني أستطيع أن أحبكما معًا! آه لو كنت أنت هو! ليتك!».

وومضت في ذهني عبارتها التي قالتها لي أمس:

- ألا ليتك كنت هو!

لقد تذكرت كلماتك يا نستنكا بحذافيرها.

«وما الذي لا أتمنى أن أصنعه لك الآن! ما من شيء آبي أن أصنعه لك، علم الله! أعرف أنك حزين ومتألم، وقد آذيتك، ولكن المرء سرعان ما ينسى الإساءة، كما تعلم، إذا كان محبًا. وأنت تحبني.

«وأنا أشكر لك هذا الحب، لأنه محفور في ذاكرتي كالحلم العذب، الذي يظل يلازمك مدة طويلة بعد اليقظة، لأني سأظل أذكر على الدوام تلك اللحظة التي فتحت فيها قلبك لي بكل صفاء أخوي، وتقبلت بكل سرور وسخاء وكرم هدية قلبي الكسير، كي ترعاه، وتحنو عليه وتعيده إلى الحياة. فإن غفرت لي وصفحت عني، كان عرفاني الأبدي هالة تحيط بذكراك عندي، هذه الذكرى التي لن ينتزعها من فؤادي شيء إطلاقا. سأصون هذه الذكرى. وأظل أمينة وفية لها، ولن أخونها، ولن أتنكر لها، لأني وفية بطبعي. ولقد رأيت كيف طار قلبي عائدًا بسرعة إلى من ينتمي إليه هذا القلب إلى الأبد.

«وسنتقابل. وستأتي لزيارتنا، ولن تتخلى عنا أو تهجرنا، لأنك ستكون صديقي وأخي على الدوام. وعندما تراني ستمد إليَ يدك. أليس كذلك؟ ستمد إليَ يدك لأنك صفحت عني. أليس كذلك؟ ألم تزل تحبني كذي قبل.

«أجل. أحبني ولا تتخل عني، ولا تهجرني، لأني أحبك جدًا في هذه اللحظة، ولأني جديرة بحبك وأريد أن أكون بحبك دائمًا.. يا صديقي العزيز، العزيز!.

«سأتزوجه في الأسبوع المقبل. لقد عاد وهو يحبني، ولم ينسيني قط. ولن يغضبك أن أكتب لك عنه، ولكني أريد أن آتي إليك معه، ولن تأبى عليك مودتك وإعزازك، أليس كذلك؟.

«إصفح وإغفر، وتذكر وأحب نستنكاك!».

* * *

وتلوت الرسالة مرارًا وتكرارًا. وأردت أن أبكي، وأخيرًا أفلتت الرسالة من بين أصابعي، ودفنت وجهي بين يدي.

وتكلمت متريونا فقالت:

ـ أريدك أن أقول لك شيئًا يا عزيزي.

ـ ما هو؟

ـ أنظر! لقد أزلت جميع خيوط العناكب، وصار المكان لائقًا لوليمة عرس أو حفل، فإن كنت تنوي إقامة شيء من هذا القبيل، المكان نظيف.

ونظرت إلى متريونا. إنها لم تزل عجوزًا ذات صحة وعافية و«شباب»، ولكني فجأة تخيلت ـلا أدري لماذا؟ـ إنها صارت هرمة، خابية العينين، والتجاعيد تغطي وجهها. ولست أدري لماذا بدت لي حجرتي هرمة فجأة، مثل متريونا. وسقفها وجدرانها قذرة، وإن خيوط العناكب تغطيها أكثر من ذي قبل.

ولست أدري لماذا، عندما أطللت من النافذة، خيل إلي أيضًا أن البيت المواجه صار كسيحًا قذرًا أيضًا، وإن الجص تساقط عن الأعمدة، وإن الكرانيش صارت سوداء مشققة، والجدران الصفراء الناصعة علتها اللطخ والأقذار. فصارت مرقطة.

ولعل السبب أن شعاع الشمس قد توارى خلف السحابة المطرة مرة أخرى، فبدا كل شيء حقيرًا قذرًا أمام عيني، أو لعله مرور صورة حياتي المستقبلة أمام مخيلتي، حافلة بالكآبة والأحزان، فرأيت نفسي كما أنا الآن، بعد خمسة عشر عامًا، رجلًا مسنًا، أقطن عين هذه الحجرة العتيقة، وحيدًا كشأني دائمًا، ومعي العجوز متريونا، التي لم تزدها السنون إشراقًا!.

ولكني لن أفكر يا نستنكا في متاعبي! ولن أكدر صفو سعادتك بسحابة أو غيمة أسى، ولن أجلب الحزن إلى قلبك بتأنيب مر، أو أجرحه بوخز الضمير الخفي، فأنغص عليك هناءتك ونشوتك، ولن أسحق زهرة واحدة من تلك الأزهار الحلوة البديعة التي ضفرت بها غدائرك وأنت سائرة معه صوب مذبح الكنيسة لعقد الزواج.

لن يكون شيء من هذا. لن يكون! لتكن سماؤك على الدوام صافية، ولكن إبتسامتك العذبة على الدوام مشرقة طلقة، وليباركك الله دائمًا لتلك اللحظة الواحدة من السعادة التي أتحتها ذات يوم لصاحب القلب المستوحش الشكور!.

رباه! إنها لحظة واحدة من الهناءة والنشوة! ولكن أو ليست هذه اللحظة الواحدة كافية لعمر بأسره؟

القلب الواهن

تحت سقف واحد، وفي نفس الطابق الرابع، في نفس الشقة.. كان يعيش زميلان شابان هما أركادي إيفانوفتش نفيديفتش، وفاسيا شنكوف.. ويشعر المؤلف بطبيعة الحال أنه مدين للقارئ بتفسير يوضح له لماذا يسمي أحد بطليه باسمه وكنيته، أما الآخر فيسمى ببساطة «فاسيا»، ولكي لا تكون تسمية فاسيا على هذه الصورة موحية بقلة الاحترام، أو الإفراط في رفع التكلف والألفة.

ولكن في هذه الحالة لابد من الابتداء بتوضيح ووصف رتبه وسنه ولقبه ووظيفته وخصائص طبع كل من البطلين. ولما كان مؤلفون كثيرون قد درجوا على استهلال كتاباتهم القصصية على هذا النحو، لذا قرر مؤلف هذه القصة أن يبدأ بالأحداث فورًا، كي يكون مختلفًا عن الآخرين (والسبب في هذا غروره الذي لا حد له، كما قد يتبادر إلى ذهن البعض). أما وقد فرغ المؤلف من هذا التمهيد، فليشرع إذن في قصته.

* * *

عاد شمكوف (فاسيا) إلى البيت بعد الساعة الخامسة في ذلك المساء في ليلة رأس السنة واستيقظ أركادي إيفانوفتش -الذي كان مستلقيًا في فراشه- ونظر شذرا إلى صديقه بنصف عين. ورأى فاسيا مرتديًا سترة الفراك المدنية الحسنة التفصيل، مع صدر قميص أبيض ناصع البياض. وأدهشه هذا بطبيعة الحال. وقال في نفسه:

- أين كان فاسيا بهذا الهندام والأبهة؟ ثم هو لم يحضر إلى البيت أيضًا لتناول الغداء.

وكان شمكوف قد أشعل في هذه الأثناء شمعة، وحدس أركادي إيفانوفتش على الفور أن صديقه يوشك أن يقدم على إيقاظه، كأنما يحدث هذا عرضًا.

وفعلًا أخذ فاسيا يتنحنح مرتين، وذرع الحجرة ذهابًا وجيئةً مرة أو مرتين، وأخيرًا وقف في الركن عند الموقد ليحشو غليونه، ثم تركه يسقط من بين أصابعه على الأرض، بالصدفة المحض طبعًا. وضحك أركادي إيفانوفتش في سره، قال:

- لقد كنت ماكرًا بما فيه الكفاية يا فاسيا!

- ألست نائمًا يا أركاشا؟

- لست متأكدًا، ولكن يبدو لي أنني لست نائمًا الآن.

- أوه يا أركاشا! مرحى أيها الصديق القديم! أهلًا يا أخي! يا أخي! أنك لن تستطيع أن تخمن ما أنا مزمع أن أقوله لك؟.

- طبعًا لن أستطيع هذا. والآن تعال هنا.

وكأنما كان فاسيا يتوقع هذا وينتظره، فذهب إليه على الفور، وإن كان في الوقت نفسه متأهب لخيانة أركادي إيفانوفنش، الذي قبض على كلتا يديه ببراعة وخفة بالغتين، وأداره إلى الخلف، وجذبه إلى أسفل، ثم شرع في خنق ضحيته. وطبيعي جدًا أن هذا الملعوب أتاح لأركادي إيفانوفتش الذي يحب المزاح قدرًا هائلًا من السرور واللذة، وأخذ يصيح:

- وقعت في يدي! وقعت في يدي!

- أركاشا! أركاشا! ما هذا الذي تصنع؟ أطلقني. بحق السماء أطلقني! ستفسد سترة الفراك!

- لا أبالي بهذا كله. ثم لماذا تريد سترة فراك؟ لماذا أنت ساذج هكذا، بحيث تقع في يدي بهذا اليسر؟ تكلم! تكلم وقل لي حالًا أين كنت؟ أين تغديت؟.

- يا أوكاشا. ناشدتك الله أن تطلقني.

- أين تعشيت؟

- ولكن هذا بالضبط أريد أن أحدثك عنه.

- عظيم! قل لي أين تغديت؟

- أطلقني أولًا!

- كلا! لن أطلقك إلا إذا أخبرتني أولَا!

فصاح فاسيا الضعيف المسكين، وهو يناضل لتخليص نفسه من قبضتي عدوه القويتين:

- أركاشا! أركاشا! ألا ترى أني لا أستطيع الكلام هكذا. مستحيل هذا تمامًا، فهناك أمور معينة، كما تعلم.

- أي أمور؟

- إنك تفقد كرامتك ووقارك إذا ما شرعت تتكلم عنها على الوضع الذي نحن فيه الآن. لا يمكن هذا. سيبدو الأمر كله مضحكًا، وهذه المسألة ليست مضحكة على الإطلاق. إنها مسألة جدية جدًا.

- لا أهمية لها إن كانت جدية ما الذي سيتفتق عنه ذهنك بعد هذا؟ قل لي شيئًا يجعلني أضحك. هذا ما يجب عليك أن تقوله لي. فلست أريد سماع أي شيء إذا كان جديًا. فأي نوع من الأصدقاء تكون عندئذ؟ أجبني بسرعة: أي نوع من الأصدقاء تكون عندئذ؟ هه؟.

- أركاشا. أقسم لك أني لا أستطيع!.

- لا أريد شيئًا من معاذيرك!.

فشرع فاسيا يقول، محاولًا بكل ما في وسعه أن يجعل كلامه يبدو وقورًا وهو مسمر على الفراش:

- إسمع يا أركاشا! أحسبني سأقول لك، ولكن...

- قل! ...

- ليكن! لقد عرضت الزواج!.

ومن غير أن ينطق بكلمة أخرى، إلتقط أركادي إيفانوفتش صديقه فاسيا ورفعه بين ذراعيه كأنه طفل، مع أن فاسيا في الواقع ليس رجلًا ضئيل الجسم، بل هو طويل القامة وإن كان نحيلًا، وشرع يذرع به الحجرة جيئةً وذهابًا، وهو يحمله بكل يسر، وهو يهدهده كأنه يهدهد رضيعًا!.

وظل أركادي يقول ويردد:

- سترى أني سأقمطك أولًا، أيها العريس!

ولكنه عندما رأى فاسيا ساكنًا لا يتحرك بين ذراعيه لا ينبس بكلمة، أفاق من سورته على الفور، وأدرك أنه ذهب في مزحته إلى أبعد مما يجب، فوضع صديقه على الأرض في وسط الحجرة، وقبله على خده بكل إخلاص ومودة.

- ألست غاضبًا مني يا فاسيا؟

- إسمع يا أركاشا.

- سامحني، بحق العام الجديد....

- لست أبالي كما تعلم. ولكن لماذا أنت مجنون هكذا أيها الوغد؟ كثيرًا ما قلت لك من قبل يا أركاشا أنك لست لطيفًا ولا مضحكًا على الإطلاق..

- ولكنك لست غاضبًا. أليس كذلك؟.

- لست أبالي، ثم ممن غضبت أنا في أي وقت من الأوقات؟ ولكنك الآن آلمتني حقًا، ألست ترى هذا؟.

- كيف آلمتك؟ كيف؟

ـ لقد أقبلت إليك كصديق، وقلبي طافح بالسعادة، كي أفرغ مكنون صدري بين يديك، وأخبرك بسعادتي..

ـ أي سعادة؟ لماذا لا تحدثني عنها إذن؟

فأجابه فاسيا في إستياء وسخط، لأنه كان فعلًا غاضبًا بعض الشيء:

ـ عرض الزواج الذي تقدمت به.

فزأر أركادي بأعلى صوته:

ـ أنت! أنت تتزوج! أنت إذن تعني ما قلت. كلا، حقًا! ولكن كيف حدث هذا؟ ثم الطريقة التي يروي بها النبأ، والدموع تنثال من عينيك! فاسيا! فاسيوك يا عزيزي، يا أعز فتى، لا تبك! أنت إذن تعني هذا فعلًا؟.

ـ وألقى أركادي إيفانوفتش بذراعيه حول فاسيا مرة أخرى. وقال فاسيا:

ـ أفهمت الآن لماذا كنت قلقًا مضطربًا؟ أنت حنون. أنت صديقي الصدوق، أعلم هذا. وقد جئتك بسعادتي، وروحي نشوانة، ثم إضطررت إلى الإعتراف بكل شيء عن سعادتي ونشوتي وأنا أناضل هذا الوثاق فوق الفراش، فاقدًا كل إعتبار ووقار وكرامة.

وأردف فاسيا، وهو يضحك نصف ضحكة:

ـ لقد جعل هذا الوضع النبأ يبدو سخيفًا، ولكني لم أكن أنتمي إلى ذاتي على نحو ما في هذا الوضع، ولم يكن يجوز المزاح أو الإستخفاف بهذا الأمر، أليس كذلك؟ وكان شيئًا حسنًا أنك لم تسألني عن إسمها حينئذ، والا فقد كنت مستعدًا أن أدعك تقتلني قبل أن أجيبك!.

فصاح أركادي إيفانوفتش في يأس حقيقي:

- ولكن لماذا لم تتكلم يا فاسيا؟ كان ينبغي أن تقول لي كل شيء من قبل، وفي هذه الحالة ما كنت لأغيظك.

- على رسلك! أنت تعلم لماذا أتقبل الأمور على هذا النحو، أليس كذلك؟ ذلك أن لي قلبًا رقيقًا.. وهذا أيضًا ما يجعلني حزينًا كل هذا الحزن لأنه لم يتح لي أن أروي النبأ بالطريقة التي كنت أحبها، كي أسرك وأفرحك، بالطريقة التي يبدو بها إعترافي لك لائقًا. فأنا في الحقيقة أحبك جدًا يا أركاشا، ولولاك لما فكرت في الزواج، بل لما إستطعت أن أعيش في هذا العالم إطلاقًا!.

وكان أركادي إيفانوفتش حساسًا جدًا بطبعه، فأصغى لفاسيا وهو يذرف الدمع ويضحك في آن واحد. وكان فاسيا في مثل هذا الحال من التأثر أيضًا. فإحتضن كل منهما الآخر مرة أخرى، ونسيا خلافاتهما.

وصاح أركادي إيفانوفتش يقول لفاسيا وهو ينظر في وجهه بشدة وإرتياب:

- والآن كيف حدث هذا؟ قل لي كل شيء يا فاسيا! ولابد أن تصفح عنى يا صديقي ولكني في الواقع صعقت، صعقت تمامًا. ذهلت حقًا! ولكن لا أيها الصديق، لا! أنت تمزح، والحكاية كلها إختراع وتلفيق، أقسم لك على هذا، أنت تكذب أيضًا هذه المرة!.

ولكنه لم يتبين في وجه فاسيا إلا ما اكد له تصميمه على الزواج بأسرع ما يمكن، فألقى بنفسه على الفراش، ثم أخذ يتشقلب فوقه من فرط السرور والبهجة، بحركات إهتزت لها الجدران نفسها.

وأخيرًا هدأ زياطه، وصاح:

- تعال إجلس هنا يا فاسيا!.

فقال فاسيا:

- أنا في الحقيقة لا أدري كيف أبدأ يا صديقي العتيق.

- ونظر كل من الصديقين نحو الآخر في حماسة وبأعصاب مستثارة.

- من هي يا فاسيا؟

فقال فاسيا وصوته يكاد لا يبين من الفرح.

- أرتميف...

- لا...!

- ولكنني كثيرًا ما كنت أحدثك عن هذه الأسرة، ثم كففت عن ذلك، ولكنك لم تلحظ شيئًا إطلاقًا. آه يا أركاشا. يا للجهد الذي بذلته كي أخفي عنك هذه المسألة! ولكني كنت خائفًا. كنت خائفًا أن أعبر عما في نيتي بالكلمات. كنت أخشى أن يفشل كل شيء. وأنا عاشق كما تعلم يا أركاشا! يا إلهي! يا إلهي! وإليك الآن ما حدث فعلًا!.

وأنشأ فاسيا يتكلم، متلعثمًا في عباراته المتقطعة من فرط الإنفعال:

- كان لها خطيب منذ سنة، وفجأة نقلوه أو أرسلوه إلى مكان ما. وأنا أعرف هذا الرجل، وكان خيرًا حقًا أنه «غار في داهية!» وهكذا تخلصت منه المسكينة. إلا أنه ظل يكتب برهة، ثم توقف عن الكتابة تمامًا، وهكذا اختفى من جميع الوجوه. وانتظر أهلها وانتظروا، وهم يتساءلون ماذا عسى أن يكون معنى هذا؟ وفجأة، منذ أربعة أشهر عاد ومعه زوجة، وطبعًا لم تطأ قدمه بيتهم... فما أشد فظاظته وما أخسه! ثم ليس لدى هذه الأسرة من يقف بجوارها ويدفع عنها الغوائل. وأخذت الفتاة المسكينة تبكي وتبكي، لا تريد أن تتعزى، وعندئذ انبريت أنا ووقعت في غرامها! وهكذا بدأت أسري عنها وأعزيها، وصرت أزورهم، ثم أزورهم... لم لست أدري كيف حدث هذا؟ ولكن الحقيقة أن الفتاة أيضًا انتهى بها الأمر إلى الوقوع في غرامي أيضًا. ومنذ أسبوع أحسست أني لم أعد أستطيع كبح جماح نفسي، فانفجرت من عيني الدموع، وبكيت، وخبرتها بكل شيء، أعني أنني أحبها. أي نعم، قلت لها كل شيء

فقالت لي: «أنا أيضًا مستعدة أن أحبك يا فاسيلي بتروفتش. ولكني فتاة مسكينة فلا تلعب بعواطفي، فأنا أكاد لا أجرؤ الآن أن أحب أحدًا بعد الذي حدث لي... أرأيت يا أركادي؟ أرأيت؟ وتمت خطبتنا على الفور، ورحت أفكر وأفكر وأفكر، وأخيراً قلت لها: «كيف نخبر والدتك؟» فقالت: «هذا أمر عسير الآن، إذ يجب أن ننتظر قليلًا، فهي خائفة، وقد لا تدعني أتزوجك الآن. وأخذت تبكي! وذهبت أنا بدون استشارتها ونفضت الأمر بحذافيره إلى السيدة العجوز هذا اليوم وركعت «ليزانكا» على ركبتيها أمامها، وكذلك ركعت أنا، ومنحتنا بركاتها! آه يا أركاشا! أركاشا يا صديقي العزيز! لن أفارقك لأي سبب في الدنيا.

- إسمع يا فاسيا! مهما حاولت لم أستطع أن أصدق هذا. أقسم لك بأمانة وصدق أني لا أستطيع هذا. الحقيقة أني أظل دائمًا أتخيل شيئًا ما... إسمع يا فاسيا: كيف يمكن أن تكون مقدمًا على الزواج؟ كيف حدث أني لم أكن أعرف هذا؟ هه! سأعترف لك يا فاسيا إذن: لقد كنت أنا أيضًا أفكر في الزواج، أيها الصديق العتيق. ولكن ما دمت أنت ستتزوج، فليس لهذا أي أهمية الآن.. وأتمنى لك السعادة، كل السعادة يا فاسيا!.

فقال فاسيا وهو ينهض ويذرع الحجرة جيئةً وذهابًا:

- أوه يا أركاشا! إني أشعر الآن أن قلبي خفيف من فرط السعادة، ويستولي عليَ إحساس لذيذ جدًا! أليس هذا صحيحًا؟ أليس صحيحًا هذا الشعور؟ انك تشعر بمثله يا أركاشا، أليس كذلك؟ طبعًا سنكون فقراء، ولكننا سنكون سعداء، وسعادتنا ليست خيالًا أجوف أيضًا، وليست مستقاة من كتاب، بل ستكون سعداء حقًا، كما تعلم.

- فاسيا! إسمع يا فاسيا.

فقال فاسيا وهو يتوقف عن السير أمام أركاديا:

- نعم

- هناك شيء واحد أفكر فيه، ولكني أخشى أن أثيره معك. ولابد أن تصفح عني وتعذرني، وأرجوك أن تبدد لي شكوكي. على أي شيء تزمعان أن تعيشا إن شاء الله! أنت تعرف أني سعيد لأنك ستتزوج، فأنا بالطبع مبتهج لهذا جدًا، ولا أكاد أتمالك نفسي من فرط السرور، ولكن قل لي على أي شيء، ومن أي شيء تزمعان أن تعيشا معًا؟

وأجاب فاسيا وهو ينظر إلى أركادي نفيديفتش بدهشة بالغة:

- يا إله السماء! حقًا يا أركادي، ماذا دهاك؟ إن السيدة العجوز نفسها (والدتها) لم يخطر لها أن تفكر في الأمر مرتين عندما وضحت لها نيتي. وكيف تظنهم كانوا يعيشون حتى الآن؟ لديهم خمسمائة في السنة يعيش عليها ومنها ثلاثتهم، فهذا هو كل معاش الرجل الراحل (والدها). وهناك ليزانكا، وأمها العجوز، وغلام صغير، يقومون بأداء مصاريف مدرسته من هذا المبلغ الضئيل. أرأيت كيف يتدبر الناس أمورهم؟ وأنا وأنت رأسمالنا بالقياس إلى هذا! فكر قليلًا في الأمر، فأحيانًا تكون السنة طيبة، فيصل دخلي إلى سبعمائة.

- إسمع يا فاسيا، لا تغضب، ولكني أقسم لك أني لا أقصد إلا الخير، وأحاول أن أفكر في وسيلة لا أكدر بها صفوك. ولكن ما حكاية السبعمائة؟ أنت تعلم أنها ثلاثمائة لا تزيد!

- ثلاثمائة؟ وماذا عن يوليان مستاكوفتش! هل نسيته؟ أتراك مثلًا نسيته؟

- يوليان مستاكوفتش حقًا! ولكن هذا ليس شيئًا مؤكدًا مضمونًا كما تعلم، أيها الصديق العتيق، ليس هذا مرتبًا ثابتًا، بحيث يكون كل روبل بمثابة صديق صدوق وفي. ويوليان مستاكوفتش بالطبع رجل عظيم وكل شيء، وأنا أحترمه، وأفهمه وإن كان مركزه رفيعًا جدًا، وأقسم أني أحبه، لأنه يحبك ويؤدي إليك نقودًا في مقابل عملك، في حين أنه كان بوسعه أن يعين كاتبًا خاصًا له، بدلًا من إعطائك هذه النقود، ولكن لابد لك أن تتبصر في الأمر يا فاسيا... ثم أنا أوافقك يا فاسيا أن خطًا مثل خط يدك لا يوجد له مثيل في كل بطرسبرج، هذا شيء أسلم لك به...

واشتدت حماسة أركادي نفيديفتش وهو يستطرد:

- ولكن ماذا يحدث.. لا قدر الله -إذا ما أغضبته يومًا ما، فإذا به بين عشية وضحاها ساخط عليك. أو ماذا يحدث إذا ما توقفت أعماله، أو إستخدم شخصًا آخر غيرك. إن أمورًا لا حصر لها يمكن أن تحدث يا فاسيا. ثم أنت تعلم أن يوليان مستاكوفتش إن كان هنا اليوم، فلعله يرحل غدًا...

- إسمع يا أركاشا! على الطريقة التي تتحدث بها الآن، قد يقع سقف هذه الحجرة علينا الآن!

- نعم. طبعًا طبعًا أنا كنت أتكلم هكذا.. أي كلام..

- كلا! أصغ لي. أصغ حتى النهاية، وسترى أنه لا يستطيع الآن أن ينفصل عني، لا. لا. إستمع لي أولًا.. أنت تعلم أني أنفذ تعليماته بكل حرص وهمة، وهو كريم جدًا، كما تعرف يا أركاشا، وقد أعطاني اليوم خمسين روبلًا من الفضة!.

- أحقًا صنع هذا يا فاسيا.. أكانت مرتبك؟

- لا تخف! إنما أعطانيها منحة من جيبه الخاص. وقال لي وهو يعطيني إياها:

- «خذ هذه! أنك لم تتقاض مني نقودًا منذ خمسة أشهر تقريبًا. خذها إن شئت، وشكرًا لك. شكرًا لك لأني مسرور منك!» أقسم لك أنه قال لي هذا، وأردف: «أنك على كل حال لا تعمل لي مجانًا!» هذا ما قاله لي -بأمانة- قاله حرفيًا، فإنهمرت الدموع على وجهي يا أركاشا، وحق هذه السماء التي فوقنا!.

- خبرني الآن يا فاسيا: هل فرغت من نسخ هذه الأوراق؟

- كلا! لم أفرغ من هذا بعد.

- أوه يا فاسيا، يا ملاكي! ما هذا الذي صنعت؟

- إسمع يا أركادي، هذا شيء لا أهمية له، ولم يزل أمامي يومان. مهلة كافية. وسأفرغ منها قبل هذا.

- ولكن لماذا لم تفرغ منها حتى الآن؟.

ـ هكذا أنت دائمًا! لكم تبدو منزعجًا، وهذا يزهق روحي ويوجع قلبي! أنك هكذا دائمًا توهن عزيمتي وتثبط همتي باستمرار. وفي كل مناسبة تصرخ على الفور «الغوث النجدة! أدركوني!» ففكر قليلًا، هل حدث شيء؟ قلت لك سأتم العمل. أقسم أني سأتمه!.

فصاح أركادي، واثبًا من مكانه:

ـ وإن لم تتمه! ثم هو قد أعطاك النقود اليوم؟ وأنت تنوي الزواج أيضًا... أوه يا إلهي!.

فصاح فاسيا:

ـ لا تنزعج! لا تقلق! سأجلس وأستقر وأشرع في العمل هذه اللحظة، فلا تهتم هكذا.

ـكيف أمكنك أن تهمل واجباتك هكذا يا فاسيا؟.

ـ أوه يا أركاشا! وكيف كان يمكنني أن أجلس وأستقر في جلستي؟ يا للحالة التي كنت فيها! بل إنني لم أكد أطيق المكث في مقعدي بالمكتب، ولم أعد أحتمل عبء مشاعري الفوارة كما تعلم... يا إله السماء! أما الآن فسأجلس طول الليل، وغدًا مساءً، ثم الليلة التالية أيضًا، وسأتم العمل.

ـ هل بقي منه الكثير؟

ـ لا تهتم بحق السماء. وإهدأ...

ومشى أركادي إيفانوفتش على أطراف أصابعه إلى الفراش، وجلس فوقه، ثم فجأة وثب واقفًا، ولكن ليعود إلى الجلوس مرة أخرى، وقد تذكر أنه ربما أزعج فاسيا، مع أن إضطرابه الشديد كان يحول بينه وبين الجلوس ساكنًا، فقد كان واضحًا أن النبأ دهمه على غفلة وأذهله، وإن رد فعل الفرحة لم يذهب تأثيره بعد. وراح ينظر إلى فاسيا شمكوف، وراح الآخر ينظر إليه باسمًا، ويهز له إصبعه السبابة، ثم يحول بصره إلى أوراقه ويعبس عبوسًا شديدًا (كأنما نجاحه كله، وفلاح محاولاته، يتوقفان على هذا العبوس). وكان باديًا أنه هو أيضًا عاجز عن السيطرة على ثورة إنفعاله، فقد ظل يبدل أقلامه، وبعد ذلك شرع في الكتابة من جديد، ولكن يده إرتجفت وأبت أن تطيعه.

وفجأة صاح، كأنما تذكر هذا الأمر لتوه:

ـ أركاشا! لقد حدثتهم عنك

فصاح أركادي:

ـ أحقاً؟ لقد كنت على وشك أن أسالك عن هذا، وبعد؟

وقال فاسيا باسمًا:

ـ نعم. سأروي لك كل شيء، فيما بعد! فأنا المخطئ الآن، لأني نسيت ما آليته على نفسي ألا أتكلم أو أفتح فمي قبل أن أتم كتابة أربع صفحات، ولكنني فجأة تذكرت ما يتعلق بك من الحديث معهم، وتذكرتهم. وكما ترى، لا يبدو أنني قادر على الكتابة إطلاقًا. وهكذا ظللت أفكر فيك...

وساد بينهما صمت.

وصاح فاسيا شمكوف بعد قليل:

ـ أخ! يا للقلم الفظيع!.

وضرب المنضدة بقلمه في تقزز، وتناول قلمًا آخر.

وقال له أركادي:

ـ إسمع يا فاسيا! كلمة واحدة فقط...

ـ ما هي؟ أسرع، ولتكن آخر كلمة...

ـ هل بقي الكثير؟

فأجفل فاسيا، كأنما ليس في الدنيا بأسرها ما هو أبغض إليه من هذا السؤال، وقال غاضبًا:

ـ يا إلهي! بقي الكثير، الكثير جدًا.

- إسمع. عندي فكرة

- وما هي؟

- لا عليك. استمر في الكتابة.

- ولكن ما هي خبرني؟

- الساعة الآن تجاوزت السادسة، يا صديقي العتيق فاسيا!

وابتسم أركادي نفيديفتش وغمز لفاسيا بعينيه، غمزة كانت في الوقت نفسه لا تخلو من تهيب، لأنه لم يكن متأكدًا بعد ماذا سيكون رد فعلها لدى فاسيا.

وكف فاسيا عن الكتابة ونظر نظرة مباشرة إلى عينيه، وشحب وجهه لهفة ونفاد صبر، وقال:

- قل ما هي؟

- أتدري..

- قل ما هي بحق السماء؟

- أتدري.. أنك شديد التوتر، ولهذا لن تستطيع الكتابة كثيرًا، فإنتظر، إنتظر. أعرف ماذا تريد أن تقول: اسمع!

ووثب أركادي نفيديفتش عن فراشه في لهفة، وقاطع فاسيا، مصممًا على سحق أي مقاومة أو إعتراض من جانبه، وأردف:

- عليك أولًا أن تتخلص من هذا التوتر، وتهدأ. عليك أولًا أن تستجمع شتات أعصابك. أليس كذلك؟.

فصاح فاسيا وهو يثب عن منضدته:

- أركاشا! أركاشا! سأجلس طول الليل إلى العمل. أقسم على هذا.

- كلا! لن يحدث هذا. بل ستخر نائمًا قرب الصباح:

- لا! لن أخر نائمًا..

- كلا. لا جدوى من هذا الذي تصنعه الآن. طبعًا ستخر نائمًا في مكانك. فالأفضل أن تقوم لتنام في الخامسة. وفي الثامنة سأناديك وغدًا يوم عطلة، ولذا يمكنك أن تستقر وتكتب طول النهار.. ثم في الليل. وبهذه المناسبة هل بقي عليك الكثير من من العمل؟

- هاك! انظر! نظر!

وأراه فاسيا كراسته، وهو ينتفض فرحًا وتوقعًا وكرر قوله:

- هاك!

- رأيي يا صديقي العتيق أنه ليس كثيرًا.

فقال فاسيا، وهو ينظر إلى أركادي باتضاع، كأنما بيده القرار:

- وهناك غير هذه الكراسة أيضًا يا أركاشا.

- كم غيرها؟

- إثنتان، صغيرتي الصفحات.

- وماذا في ذلك؟ ستتم العمل في موعده، صدقني!

- أركاشا!

فقام أركادي واحتضن فاسيا، حتى كاد يسحقه بذراعيه اللتين تشبهان ذراعي دب ضخم، وقال:

- إسمع يا فاسيا؟ الليلة ليلة رأس السنة. وكل إنسان يقضي السهرة مع أصحابه وخلانه وعائلاتهم. وأنا وأنت وحيدان يتيمان. آه يا فاسيا.

- أركادي! هذا القرار!.

- لقد كنت على وشك أن أقوله لك يا فاسيا. إسمع..

وسكت أركادي، فاغر الفم، وقد فقد القدرة على الكلام من شدة الفرح، وأمسك فاسيا بكتفيه، وحدق في عينيه، وحرك شفتيه كأنه يريد أن يتم له عبارته.. وأخيرًا سأله فاسيا:

- ماذا تريد أن تقول؟

- قدمني لهم الليلة.

فصاح فاسيا في جذل:

- إذن هيا بنا يا أركاشا نذهب إليهم لتناول الشاي! أتدري ماذا سنصنع؟ لن نبقى حتى بداية العام الجديد في منتصف الليل، بل سننصرف قبل ذلك.

- يعني نبقى هناك ساعتين، لا أكثر ولا أقل.

- ثم نفترق، ولا نتقابل معهم إلا بعد أن أفرغ من عملي.

- فاسيوك يا حبيبي!

- أركاشا.

لم يستغرق أركادي إلا ثلاث دقائق بالضبط كي يرتدي سترته الفراك، أما فاسيا فهندم نفسه فقط، لأنه في غمرة حماسته للاستقرار والعمل كان قد نسى أن يخلع سترته الفراك بعد عودته إلى البيت.

وأسرعا معًا إلى الشارع، وأحدهما أعظم سعادة من الآخر، وكان طريقهما متجهًا إلى حي كولوما. وكانت خطوة أركادي إيفانوفتش خفيفة ونشطة، ومشيته نفسها تدل على مبلغ إبتهاجه الحسن طالع فاسيا وسعادته النامية بإطراد. وراح فاسيا يخب إلى جواره، بخطوات أقصر، ولكن هيئته لم تكن بعيدة عن الوقار والسمت، بل لعل الأمر بالعكس، فلم يسبق له قط أن بدا في عيني أركادي إيفانوفتش في ضوء أفضل من هذا. وكان أركادي إيفانوفتش يشعر في هذه اللحظة باحترام عظيم له، وعيب فاسيا الجسماني -الذي لم يعرف القارئ شيئًا عنه بعد، فقد كان فاسيا ماثلًا في قامته إلى أحد جانبيه، ذلك العيب الذي كان يحرك قلب أركادي بالشفقة عليه، يحرك الآن فيه نوازع المودة والإعزاز الحنون، الذي كان فاسيا يستحقه بلا مراء. أجل أن أركادي إيفانوفتش كان على شفا البكاء فرحًا وتأثرًا، ولكنه سيطر على نفسه.

وصاح أركادي، وقد رأى فاسيا ينحرف لينعطف في شارع فوزنسنكي:

- إلى أين أنت ذاهب هكذا يا فاسيا؟ هذا الطريق أقرب.

- هيه يا أركاشا. صه.

- ولكن هذا الطريق أقرب حقًا يا فاسيا.

فقال فاسيا، بلهجة يشوبها الغموض، وصوته يكاد يذوب من فرط السعادة:

- أتدري يا أركاشا.. أتدري؟ أود أن أقدم إلى ليزانكا هدية صغيرة.

- ما هي؟

- هناك دكان رائع، هو دكان مدام لارو، على هذه الناصية.

- حقً

- قلنسوة يا صديقي العتيق. قلنسوة. وقد رأيت قلنسوة بديعة صغيرة في واجهة الحانوت اليوم، وسألت، فقيل لي أن هذا الطراز إسمه مانون ليسكو، وهو طراز بديع. رائع! وفيها شرائط بلون الكرز، فما لم تكن باهظة الثمن جدًا... بل حتى لو كانت باهظة الثمن يا أركاشا.

- أنت أعظم شاعر يا فاسيا. وإني أعلن هذا على الملأ. هيا بنا.

وأسرعا في خطوهما حتى كادا يجريان، وبعد دقيقتين دخلا الحانوت. واستقبلتهما امرأة فرنسية داكنة العينين، وشعرها غدائر متموجة، وما إن وقع بصرها لأول وهلة على العميلين، حتى غدت في مثل مرحهما وسعادتهما، أو أكثر منهما مرحًا وسعادة، إن كان هذا في الإمكان. وكان فاسيا مستعدًا أن يقبل مدام لارو لفرط ابتهاجه وقال بصوت خافت:

- أركاشا.

وهو ينظر نظرة عابرة إلى جميع الأشياء الجميلة والفاخرة المعروضة على رفوف خشبية وعلى مائدة المتجر الكبيرة، ثم أردف مبهورًا:

- روائع! يا لجمال هذه الأشياء جميعًا! أنظر إلى هذا الشيء الرشيق الحلو هناك مثلًا. أتراه؟

وأشار بيده إلى قلنسوة جميلة جدًا، ولكنها ليست إطلاقًا تلك التي أراد شراءها، لأنه كان قد انتقاها عن بعد، وركز نظرته الفياضة بالإعجاب على القلنسوة، التي لا تضارعها قلنسوة في

جمالها، وهي معروضة على الجانب الآخر من المائدة، وكانت نظرته كفيلة أن تجعل المرء يظن أن شخصًا ما يهم بسرقتها، أو أن القلنسوة نفسها توشك أن تطير في الهواء، لا لشيء إلا لتروغ منه.

وقال أركادي إيفانوفتش، مشيرًا إلى قلنسوة أخرى:

- تلك في ظني هي الأفضل

فقال فاسيا، متظاهرًا بأن إختيار أركادي إستأثر بإعجابه:

- مرحى يا أركاشا! إنها صاحبة التفوق على الأخريات حقًا، لقد بدأت أشعر باحترام خارق لذوقك. قلنسوتك فاتنة حقًا، لكن تعال هنا من فضلك!.

- أهناك أخرى أفضل منها يا صديقي؟

- ألق نظرة على هذه إذن.

فقال أركادي في إرتياب:

- هذه؟

ولكن عندما لم يعد فاسيا قادرًا على تمالك نفسه، واختطف القلنسوة من فوق الحامل المستقر على طرف المائدة، وبدا كأن القلنسوة طارت من تلقاء نفسها لفرط خفتها، ووسوست مخرماتها وأقواسها وسوسة داعبت الأذن في حلاوة، وكأنها ترحب بمثل هذا المشتري الذي إنتقاها بعد طول إنتظار، عندئذ إنطلقت من صدر أركادي إيفانوفتش القوي صيحة إعجاب مفاجئة. وحتى مدام لارو التي لزمت الصمت التام، معتصمة بعلو كعبها في أمور الذوق، ريثما يتم الإختيار -حتى مدام لارو كافأت فاسيا على حسن ذوقه بإبتسامة مشرقة. وكان كل شيء فيها: من نظرتها، إلى إيماءتها، يقول بلسان فصيح:

- نعم! لقد أحسنت الحدس، وإنك لتستحق السعادة التي تنتظرك.

وصاح فاسيا مخاطبًا القلنسوة:

- ألم تكوني خجولة منذ قليل؟ وكنت تتوارين عن الأنظار عمدًا، أيتها العزيزة الحسناء.

وقبلها، أو بعبارة أدق قبل الهواء المحيط بها، لأنه كان يخشى أن يمس هذا الكنز بشفتيه.

وقال أركادي إيفانوفتش مكررًا عبارة قرأها هذا الصباح في الصحيفة السيارة:

- وهكذا تتوارى دائمًا مناقب الفضل والفضيلة! وماذا بعد يا فاسيا؟

- مرحى! أراك تجيد البلاغة والنكتة هذا اليوم. وسيكون تأثيرك ساحقًا على السيدتين. أرجوك يا مدام لارو!

- بماذا تأمر يا سيدي؟

- عزيزتي مدام لارو...

فنظرت مدام لارو إلى أركادي إيفانوفتش بطرف عينيها وإبتسمت في إغضاء.

وقال فاسيا:

- لا يمكنك أن تتصوري إلى أي حد أحبك جدا في هذه اللحظة... والآن اسمحي لي أن أقبلك.

وقبل فاسيا صاحبة المتجر! وكان عليها بطبيعة الحال أن تستنجد بكل ما لديها من إتزان وهدوء حتى لا تفقد وقارها مع وغد مثل فاسيا. ولكني أؤكد أن دماثة مدام لارو الفطرية الأصيلة هي التي حدت بها إلى تقبل إندفاعاته الحماسية على هذا النحو، فغفرت له جرأته، ولكم كانت بارعة في معالجة الحالة! وهل يسع أي إنسان أن يغضب حقًا من فاسيا!.

- ما هو الثمن يا مدام لارو؟

فأجابته باسمة، وقد إستردت هدوءها:

- خمسة روبلات فضية!.

وعندئذ أشار أركادي إيفانوفتش إلى القلنسوة التي كان قد اختارها، وسأل على إستحياء:

- وهذه يا مدام لارو..

- هذه ثمنها ثمانية روبلات فضية.

فهتف فاسيا:

- ويحي! ويحي! ولكنك لابد أن تقولي يا مدام لارو أيهما أكثر أناقة، وجمالًا، وحلاوة، وأيهما أقرب إلى أسلوبك في الفن؟

- تلك الأخرى أغلى ثمنًا، ولكن اختيارك وقع على أجملهما وآنقهما.

- عظيم. وهذه هي التي سنأخذها!.

فتناولت مدام لارو ورقة رفيعة غاية الرفع، ولفت بها القلنسوة، ثم شبكت فتحتها بدبوس صغير، وبدت الورقة أخف مما كانت وهي خالية من القلنسوة. وتناولها فاسيا بعناية فائقة بين أصابعه، وهو لا يكاد يتنفس، وانحنى لمدام لارو، وهنأها على حسن ذوقها، وانصرف من المتجر.

وصاح فاسيا، وهو ينفجر بضحكة قصيرة لا صوت لها، مسرعًا في خطوه في الوقت نفسه، ومفسحًا بينه وبين المارة متسعًا كبيرًا، متوهمًا أنهم جميعًا يحاولون عمدًا الإرتطام بالقلنسوة الثمينة:

- أنا أخو الدنيا وصاحبها يا أركاشا.. ولدت لأكون أخا الدنيا وصاحبها!.

وبعد دقيقة قال، وفي صوته رنة جد:

- إسمع يا أركادي! إسمع! كم أنا سعيد! سعيد!

- فاسيا! وكم أنا سعيد أيضًا يا فتاي!

- لا يا أركاشا. لا! إن حبك لي بغير حدود، أعرف هذا، ولكنك لا تستطيع أن تحدس واحدًا على مائة مما أشعر به الآن! قلبي ملآن جدًا، ملآن جدًا يا أركاشا! فلست أهلًا لكل هذه السعادة. وإني لأشعر بها، وأسمعها! فماذا عساي صنعت كي أستحقها.

وتحشرج صوته بشهقات مكتومة وهو يستطرد:

- ماذا صنعت، خبرني؟ أنظر إلى كل الناس. أنظر كم يخيم الحزن عليهم، وكم من الدموع تحفل بها حياتهم، وكيف تمضي أيامهم رتيبة مملة بدون يوم للعطلة! وأنا! أنا محبوب من فتاة كهذه!... ولكنك ستراها بنفسك، وستقدر هذا القلب النبيل بنفسك. هذا القلب النبيل الذي هو قلبها. وأنا وضيع المولد، ولكني الآن صاحب منصب ودخل مستقل، هو مرتبي. وقد ولدت بعيب جسمي، فكتفاي ملتويتان بعض الشيء. ولكنها تحبني كما أنا. ويوليان مستاكوفتش أيضًا كان لطيفًا جدًا اليوم ومراعيًا لشعوري، ومهذبًا معي. وهو قلما يتحدث إليَ، ولكنه جاء وقال لي: «يا فاسيا»... أي والله هكذا ناداني، بإسم فاسيا فقط لا غير ثم أردف: «أتريد أن تصخب وتمرح في هذه العطلة. هه؟ وضحك، فقلت له: «هو ذلك يا صاحب السعادة!

ولكن عندي كمًا كبيرًا من العمل لابد أن أنجزه!» ثم استجمعت شجاعتي وقلت: «ومع هذا فقد أمتع نفسي بعض الشيء أيضًا يا صاحب السعادة!» أقسم لك أني قلت له هذه العبارة. وعندئذ أعطاني ذلك المبلغ من النقود، وأضاف كلمة أو كلمتين، فبكيت. الحق أن الدموع طفرت من عيني، وأحسبه كان متأثرًا أيضًا، فربت على كتفي وقال: «هكذا هكذا يا فاسيا! ينبغي أن يكون شعورك دائمًا هكذا».

وسكت فاسيا لحظة، فأشاح أركادي إيفانوفتش عنه ومسح بقبضة يده دمعة ترقرقت على صفحة خده.

واستطرد بعد ذلك فاسيا قائلًا:

- وعندئذ.. وعندئذ... وأنا لم أقل لك هذا من قبل يا أركادي! كم تسعدني أنت أيضًا بصداقتك، وما كنت لأظل على قيد الحياة إطلاقًا لولا وجودك بجانبي يا أركاشا! كلا. لا تفه بكلمة واحدة يا أركاشا: دعني أشد على يدك، وأشكرك!.

ومرة أخرى عجز فاسيا عن الاسترسال في الكلام، فسكت.

وود أركادي إيفانوفتش لو أتيح له أن يحضن فاسيا هنا والآن، وهما يعبران الشارع، ولكن صيحة انطلقت بين آذانهما.

- هيه! حاسب أنت وهو!

فجريا مذعورين إلى بر الأمان، فوق الطوار. وكانت هذه الحركة المفاجئة مبعث راحة لكليهما، ولا سيما أركادي إيفانوفتش. وراح يعزو جيشان صدر فاسيا بالعرفان إلى ما اكتنف هذه اللحظة من عواطف. أما هو شخصيًا فكان حزينًا يشعر بالشجن، لأنه أحس في أعماقه بتفاهة كل ما صنعه لفاسيا وقدمه له! وانتابه فعلًا إحساس بالخزي من نفسه عندما شرع فاسيا يشكره على ذلك القليل الذي صنعه له. ولكن عزاه عن هذا أنه لم يزل أمامه العمر بأكمله لتعويض ما فات. وتنهد أركادي إيفانوفنش بارتياح آخر الأمر.

* * *

وكانت مضيفتهما قد يئست وكفت عن انتظارهما! والدليل على هذا أن الأسرة كانت تتناول الشاي بالفعل. ولكن العجائز غالبًا أحصف من الشابات. ثم أي شابة هي في هذا الظرف! فقد أصرت ليزانكا على أنه لن يأتي اليوم:

- إنه لن يأتي يا ماما. أشعر في قلبي أنه لن يأتي!.

أما والدتها فظلت تقول لها أن قلبها يحدثها بالعكس تمامًا. وأنه لابد حتمًا أن يأتي، ولن يستطيع البقاء بعيدًا عنها، بل سيأتي ركضًا، فلا أحد في مثل هذه الساعة مرتبط بساعات عمل في مكتب أو ديوان، وفي ليلة رأس السنة أيضًا!.

ولما ذهبت ليزانكا وفتحت الباب، لم تكن تتوقع أن تراهما، ولذا لم تصدق عينيها، وتقطعت أنفاسها دهشة، وخفق قلبها كأنه طائر صغير حبيس، وغمرتها حمرة الخجل من فرعها إلى قدمها، حتى صارت كثمرة الكرز، وما أشد شبهها فعلًا بثمرة الكرز، يا إلهي! ما أعظمها من مفاجأة!

وندت من بين شفتيها صيحة:

- أوه! أهلًا يا عزيزي!

وطوقت بذراعيها عنق فاسيا.

ولكن تصور مبلغ دهشتها وارتباكها الشديد المفاجئ، حينما رأت خلف فاسيا تمامًا -كأنما يريد أن يتوارى وراء ظهره- ذلك العملاق أركادي إيفانوفتش، ينظر إلى الأرض في خجل وارتباك بعض الشيء.

ولابد لنا من الاعتراف بأنه كان شديد الارتباك في حضرة النساء، لدرجة أنه ذات مرة... ولكن دعنا من هذا الحديث الآن... ولكنك يجب أن تقدر موقفه أيضًا، فلم يكن هناك شيء يستوجب الضحك، فها هو واقف في وسط البهو، بقبعته العالية ومعطفه الذي أسرع بخلعه، فبدا ملتفًا في أحقر لفاع أصفر من الصوف المحبول، معقودًا إلى الخلف. وكان لابد له من فك كل هذه الأربطة وإزالته بسرعة قدر الإمكان كي يبدو في مظهر أليق بعض الشيء، لأنه ما من أحد لا يود أن يقدم للسيدات في أحسن سمت ممكن.

وها هو فاسيا العزيز اللطيف، يصيح بلا إمهال وبلا رحمة:

- هاك يا ليزانكا العزيزة عزيزي أركادي! ما رأيك فيه؟ إنه أعز وأفضل أصدقائي. عانقيه وقبليه يا ليزانكا! إعطه قبلة مقدمًا، من أجلي هذه المرة، فإنك متى عرفته قبلته من تلقاء نفسك!

وإني لأسألك ماذا كان عسى أركادي إيفانوفتش المسكين أن يصنع؟ ولم يكن قد أفلح إلا في فك نصف اللفاع الأطول من ليل الشتاء!.

وإني والله لأخجل أحيانًا من حماسة فاسيا البالغة. وهي تدل طبعًا على رقته وطيبة قلبه بطبيعة الحال، ولكن هذه التصرفات محرجة ولا ضرورة لها!.

وأخيرًا دخلا كلاهما، وكان فرح السيدة العجوز متجاوزًا كل حد حين قدم فاسيا صديقه أركادي إيفانوفتش إليها، فقد سمعت عنه الكثير جدًا. ولكنها لم تتم عبارتها التي تعرب بها عن سرورها، لأن صيحة فرح غامر.

- أوه!

رنت في أرجاء الحجرة، جعلتها تتوقف في وسط الجملة. يا للهناء! ها هم ليزانكا واقفة أمام القلنسوة التي برزت من جوف اللفافة الخفيفة، على غير توقع، وتقلصت أصابع الفتاة، وإفتر فوها عن إبتسامة ما أبدعها. حتى لقد تساءل فاسيا: ألا ليت مدام لارو كان عندها قلنسوة أفضل من هذه، جزاء كل هذه الفرحة.

ولكن كيف يمكن لأحد أن يجد قلنسوة أبدع من هذه في أي مكان؟ وإني لأتساءل عن هذا بكل جد وصدق، حتى لقد اتهمت فاسيا في هذه اللحظة بالجحود. فهي قلنسوة من «التل»، خفيفة كالريشة، ولها شريط عريض بلون الكرز، ومبطنة بالمخرمات، وللشريط طرفان يتدليان عند الظهر، على العنق، وينسدلان على الكتفين. وكل ما هناك أن القلنسوة نفسها يجب أن توضع على مؤخرة الرأس. أنظر الآن وقل لي ما رأيك؟ ولكن يبدو لي أنك لا تبالي. فأنت تنظر بكل حواسك إلى شيء آخر، إلى قطرتي دمع كأنهما لؤلؤتان تجمعتا بين الأهداب السوداء الداكنة، ثم انسكبتا...

* * *

وجلسوا جميعًا إلى المائدة.. فاسيا إلى جوار ليزانكا، والسيدة العجوز إلى جوار أركادي إيفانوفتش، وتحدثوا، وأبدع أركادي إيفانوفتش في الحديث فزاد نفسه شرفًا. والحق أني لم أكن أتوقع منه هذا كله. فبعد كلمة أو كلمتين عن فاسيا.. حول دفة الحديث ببراعة إلى يوليان مستاكوفتش مخدومه وصاحب الفضل عليه. وتكلم بمهارة والحق يقال، بحيث لم تنقطع غزارة الحديث في هذا الموضوع بعد إنقضاء ساعة كاملة. ومس بعض المسائل مسًا حكيمًا حصيفًا، ولا سيما غرابة أطواره، وبصفة خاصة فيما يتصل بحبيبه فاسيا. ولقد فتن هذا الحديث السيدة العجوز وسحرها، حتى أنها تعمدت الإيماء إلى فاسيا وإنتحت به جانبًا لتقول له أن صديقه أركادي إيفانوفتش شاب جذاب، لطيف الحديث، وأنه -فوق هذا وذاك- رزين جاد مهذب. وأوشك فاسيا أن ينفجر ضاحكًا لفرط سروره بتوفيق صاحبه في إظهار مزاياه.

أجل كاد يضحك مقهقهًا وهو يتذكر «رزانة» أركاشا، وهو يكاد يخنقه منذ ساعة أو أقل! وبعد ذلك أومأت السيدة إلى فاسيا كي يتبعها إلى الحجرة الأخرى خلسة، ولابد لنا من التنبيه هنا إلى أنها كانت تعامل ليزانكا معاملة لا ترضاها، فقد خانتها وأفشت سرها لفرط إمتلاء قلبها بالسعادة، عندما تركت فاسيا يختلس نظرة على الهدية التي كانت ليزانكا تعدها له في الخفاء بمناسبة رأس السنة.

وكانت هذه الهدية حافظة نقود، مطرزة بالخرز وخيوط القصب جميلة النقوش، فعلى أحد وجهيها رسم غزال يكاد ينبض بالحياة، ينطلق بأقصى سرعته، وبصورة طبيعية جدًا. وعلى الوجه الآخر صورة قائد معروف جدًا، متقنة الصنع أيضًا، وناطقة بالشبه العظيم.

ولا حاجة بي إلى الإسهاب في الحديث عن ابتهاج فاسيا وفرحه بالهدية. وفي الوقت نفسه لم يضع الوقت هباء في حجرة الجلوس أيضًا، فقد اقتربت ليزانكا من أركادي إيفانوفتش. وتناولت يديه كلتيهما في يدها، وراحت تشكره، وأدرك أخيرًا أنها تشكره لعنايته بفاسيا.

والحق أن ليزانكا كانت متأثرة جدًا، فكثيرا ما سمعت من فاسيا كم كان أركادي إيفانوفتش مولعًا به، وهو الصديق الصدوق، وكيف كان يرعاه ويعني به، ويقدم له النصح الثمين في جميع المواقف، بحيث أنها لا يمكن أن تفيه حقه من الثناء. وتمنت بصراحة على أركادي أن يحبها أيضًا، ولو نصف محبته لفاسيا.

ثم راحت تسأله: هل يعني فاسيا بصحته عناية كافية.

وأبدت بعض المخاوف من جهة مزاجه السريع الإشتعال، وقلة خبرته بالحياة والناس، وقالت أنها سترعاه بكل ذمة وأمانة، وتعزه وتدلله، وتحول مصيره بكل عنايتها. وتمنت ألا يتخلى عنهما أركادي إيفانوفتش، وأن يظل مقيمًا معهما في بيت واحد.

وصاحت في فرح برئ ساذج:

- سيكون ثلاثتنا شيئًا واحدًا.

ولكن ها قد حان وقت الإنصراف. وبطبيعة الحال ألحت السيدتان عليهما بالبقاء، إلا أن فاسيا قال بكل حزم أن هذا ليس في وسعهما. وأيده أركادي إيفانوفتش في ذلك.

وبطبيعة الحال سؤلا عن السبب، فقالا على الفور أن فاسيا مكلف بعمل إضافي، يخص يوليان مستاكوفتش، وهو عمل عاجل وهام جدا، وفظيع، لابد من تسليمه بعد غد صباحًا. وأن هذا العمل لم يقارب الإنتهاء، بل هو متأخر عن معدل إنجازه الطبيعي. وشهقت الوالدة عندما سمعت هذا، وإنزعجت ليزانكا ودفعت فاسيا دفعًا للخروج! ولكن هذا لم يقلل من حرارة قبلة الوداع، رقم قصرها وسرعتها...

وأخيرًا أسرع الصديقان عائدين إلى البيت.

ومنذ اللحظة التي ألفيا فيها نفسيهما في الشارع، شرع كل منهما في وقت واحد في الإفضاء، بانطباعاته لصاحبه. وكان لابد من هذا، فأركادي إيفانوفتش غارق في الحب حتى أذنيه، غارق في ليزانكا، ومن عساه يكون أفضل من فاسيا لتلقي هذا الإعتراف منه، وفاسيا أسعد العاشقين على وجه الأرض طالعًا.

وإليك ما فعله، فقد أفضى لفاسيا بمكنون صدره كله بغير تردد أو إرتياب، وشعر فاسيا بأن هذا كله لطيف، وسر به جداً، بل وقال إن هذا أفضل، ولن يكون منه إلا الخير، لأنهما سيكونان الآن أوثق صداقة من ذي قبل. ورد عليه أركادي إيفانوفتش قائلًا:

ـ لقد قرأت أفكاري يا فاسيا، فأنا أحبها مثلما أحبك تمامًا! وستكون ملاكي الحارس مثلما هي ملاكك الحارس، لأن سعادتك ستلقي مزيدًا من الإشراق عليَ أنا أيضًا، وتدفئني بأشعتها، وستكون هي سيدة قدري ومصيري أيضًا. إن سعادتي يا فاسيا ستكون بين يديها، فدعها تتحكم في حياتينا معًا، وعلى السواء. أجل أن صداقتي لك هي بعينها صداقتي لها. فأنتما الإثنان لا يمكن الفصل بينكما عندي الآن، وكل ما هناك أنه صار عندي الآن إنسانان من طرازك، ولا واحد...

ثم سكت أركادي عن الكلام وقد غلبه انفعاله على أمره، في حين كان فاسيا نهب جيشان عميق في نفسه من أثر كلمات صديقه. ولم يسبق له أن توقع سماع مثل هذا الكلام من فم صديقه أركادي! فأركادي لم يكن بليغًا فصيح اللسان في يوم من الأيام. ثم هو ليس من النوع الحالم، ولكن ها هو قد شرع الآن نجاة بنسج خيوط أبهج أحلام اليقظة وأشدها إشراقًا وأعظمها سعادة!.

واستطرد أركادي قائلًا:

ـ رباه! كم سأعزكما كليكما، وأرعاكما وأعني بكما! فأنا أولًا وقبل كل شيء يا فاسيا سأكون شبين جميع أولادكما، جميعهم، كل واحد وواحدة من أطفالكما سأكون والده في العماد. والأمر الثاني يا فاسيا، أنه يجب علينا التفكير في المستقبل. فلابد لنا من شراء شيء من الأثاث، واستئجار مسكن، يكون لك ولها ولي، أعني لكل واحد من ثلاثتنا حجرته الخاصة به، أتدري ماذا سأصنع يا فاسيا؟ سأمضي منذ الغد وأتلفت في الشوارع متسقطًا لافتات «للإيجار». ثلاث حجرات.. لا.. لا! بل حجرتان فقط، فلسنا بحاجة إلى أكثر منهما. والآن إذ أفكر في هذا الأمر بهدوء (!) أدركت أني كنت أهذي هذا اليوم منذ قليل، فسيكون لدينا ما يكفي من المال يا فاسيا، فلا تخف! فمنذ اللحظة التي أطللت فيها في عينيها الجميلتين وأنا أدرك تمامًا أنه ستكون لدينا كفايتنا من كل شيء! يا إلهي لكم سنعمل كلانا بجد وإجتهاد! والآن يا فاسيا نستطيع أن نغامر ونستأجر مسكنًا، ولنقل أن إيجاره خمسة وعشرون روبلًا.. لنقل هذا... والمسكن يعني كل شيء يا صديقي العتيق. ففي الحجرات الخمسة الحسنة يشعر المرء منا أنه خفيف القلب، وأن أحلامه فياضة بالسعادة والهناء! ثم لا تنس

-ثانيًا- أن ليزانكا ستكون خازننًا ووزير ماليتنا المشترك، فلن يضيع «كوبك» واحد هباء! أو تظنني بعد هذا يمكن أن أعرج على حانة للشراب الآن؟ فماذا تظنني إذن؟ لن يكون هذا مني وحياة رأسك، ثم سنحصل على علاوة، وسنحصل على منح ومكافآت، لأننا سنعمل بهمة ونشاط. يا إلهي لكم سنعمل بجد وإجتهاد! سنحرث العمل حرثًا كالثيران. وفكر الآن فيما سيكون...

وتسلخ صوت أركادي إيفانوفتش ووهن من شدة النشوة، وأردف:

- ستهب علينا الرياح محملة كل مرة بخمسة وعشرين روبل أو ثلاثين! وأنت تعرف طبعًا أن كل مكافأة تعني قلنسوة جديدة، أو وشاحًا أو جوربًا، أو شيئًا من هذا القبيل! وعلى فكرة لابد لها أن تحيك لي من الصوف لفاعًا، فلكم يبدو لفاعي هذا حقيرًا، بلونه الأصفر، ومقززا. ولكم أحرجني منظره اليوم يا فاسيا؟ ويا لك أيضًا من فتى (نكتة)، تقدمني لها وأنا واقف بمثل هذا النير الأصفر فوق عنقي. ولكن هذا ليس صميم موضوعنا إطلاقًا..

أما الصميم فإليك هو: أني آخذ الآن على عاتقي مسئولية تزويد المسكن الجديد بكل ما يلزمه من الفضيات، فمن واجبي الذي ألتزم به أمامي الآن أن أقدم لكما هدية صغيرة. وهذا كما تعلم شيء متعلق بشرفي، واحترامي لنفسي! فمكافأتي الإضافية لن تفلت مني هذه المرة، ولن يعطوها بدلًا مني لشوروخودوف، فلن أترك هذه النقود تأسن هذه المرة أيضًا في جيب هذا المخلوق! إصغ لي! سأشتري لكما شيئًا من الفضيات: ملاعق، وسكاكين جيدة، ليست فضية بالضرورة، ولكنها أجود أنواع السكاكين المتاحة. وسأشتري أيضًا صدارًا. ليس لك بل لي، ولكن كأنه لك، لأني سأكون شاهد زواجك وشبينك كما تعلم؟ وكل ما عليك الآن أن تحاول، وتستجمع شتات نفسك

وسأقف على رأسك هذه الليلة بالعصا، والليلة القادمة أيضًا طول الليل، وسأجعلك تعمل حتى الموت، لأنك لابد أن تفرغ مما لديك من عمل.. أتمه بسرعة يا فاسيا، ثم بعد ذلك نخرج لقضاء السهرة معًا، ونكون سعيدين جدًا. وسنجلس معًا نحن الثلاثة ذات مساء بطوله، يا إلهي! أي سعادة هذه! وما أشد حسرتي لأني لا أستطيع أن أعاونك في عملك، وإلا لكنت جلست وكتبت الأوراق كلها بدلًا منك. لماذا يا ربي ليس لي ولك خط واحد؟

فقال فاسيا:

- أجل. أجل. لابد لي من الإسراع. فلابد أن الساعة بلغت الحادية عشرة الآن... أعتقد أني يجب أن أسرع قليلًا... إلى العمل.

وكان فاسيا قبل هذه الكلمات يشع بالبهجة، فهو إما مبتسم لما يسمعه من صديقه، أو مشير بيديه إشارة مشاركة، أو قائل كلمة تأييد، أي أنه على الجملة كان نهبًا لمشاعر قوية جياشة، ولكنه تحول فجأة بعد هذه الكلمات القليلة التي فاه بها إلى شخص مستسلم صامت، ومضى مسرعًا في خطوه، إسراعًا أوشك أن ينقلب إلى ركض. ويبدو أن فكرة مهيمنة طاغية حولت ذهنه المشتعل إلى مثل برودة الثلج، فإنكمش قلبه فجأة.

وأقلق هذا التحول بال أركادي إيفانوفتش، وخصوصًا عندما رأى أسئلته اللهفانة لا تجد تقريبًا أي إجابة من جانب فاسيا، الذي لم يرد عليه بأكثر من كلمة أو كلمتين أو بعبارة وجيزة كثيرًا ما وجدها مقطوعة الصلة بما يسأله منه.

وعندئذ صاح به، وهو يسرع ليلاحق خطواته:

- ماذا دهاك يا فاسيا؟ أهناك ما يقلقك؟

فأجابه فاسيا بشيء من الضيق:

- كف عن الثرثرة، وكن فتى طيبًا.

فرد عليه أركادي إيفانوفتش قائلًا:

- على رسلك يا فاسيا، ولا تكتئب أو تثبط همتك.. لقد رأيتك تكتب ما هو أكثر من هذا المقدار بكثير، وفي وقت أقل من ذلك... فلماذا القلق؟ إنك موهوب في النسخ! وإن إقتضى الأمر الإسراع، ففي وسعك أن تجرب مزيدًا من السرعة في الكتابة وخصوصًا أنهم لن يحفروا ما تكتبه في كليشهات كي يجعلوا منه كراسات مشق للخط، كما تعلم! ستستطيع، وتوفق. وكل ما هناك أنك متوتر الأعصاب مستثار النفس مشغول الخاطر الآن، وسيكون هذا كله عاملًا على شيء من الإبطاء.

فغمغم فاسيا شيئًا بصوت خافت، وواصل الإثنان بعد ذلك سيرهما نحو البيت بسرعة عصبية بالغة!.

* * *

وجلس فاسيا إلى عمله فورًا، وتضاءل توتر أركادي إيفانوفتش العصبي فهدأ بعض الشيء، وخلع ملابسه في صمت، ورقد على فراشه، وقد ثبت عينيه طول الوقت على فاسيا، فقد استولى عليه خوف غريب، وراح يسأل نفسه وهو يرقب وجه فاسيا المبيض وعينيه اللامعتين، والقلق الذي تبدى في كل إشارة أو إيماءة منه:

- ماذا به؟ ماذا دهاه؟... إن يده ترتجف أيضًا. ولكن لا بأس! ربما كان الأفضل أن أنصحه بالرقاد في فراشه ساعة أو ساعتين؟ فسوف يتسنى له حينئذ على الأقل أن يتخلص من اضطرابه بالنوم.

وكان فاسيا في هذه اللحظة قد فرغ لتوه من صفحة واحدة، فرفع عينيه عن الأوراق إلى أركادي، ولكنه لم يلبث أن غض بصره على الفور، وتناول قلمه مرة ثانية.

فإنتهز أركادي إيفانوفتش الفرصة وقال له:

- إسمع يا فاسيا.. عندي فكرة! أفلا يكون من الأفضل لك أن تغفو قليلًا؟ أنظر.. إنك محموم فيما أعتقد.

فنظر فاسيا إلى أركادي في ضيق، بل في غضب، ولم يجب. فقال الآخر:

- إسمع يا فاسيا، ما هذا الذي تصنعه بنفسك؟

وإستجاب له فاسيا هذه المرة، فقال:

- ألعل الأوفق لنا أن نشرب شيئًا من الشاي يا أركاشا.

فسأله أركادي:

- لماذا؟ ما السبب؟

ـ لأنه سينعشني. فلست أريد أن أنام. كلا. لن أنام! وسأظل أكتب. وسأستريح قليلًا وأنا أشرب الشاي، وتكون الأمور عندئذ أفضل وأيسر.

ـ لقد أصبت كبد الحقيقة يا عزيزي فاسيا. رائع ما قلت، فقد قلت ما كنت أريد أن أقوله لك حرفيًا، لأني كنت سأقترح عليك أن تحظى بفترة راحة، ولكن لماذا لم أفكر شخصيًا في الشي؟ أتدري لماذا؟ إن مارفا لن تصحو الآن، ولن تنهض من نومها لأي سبب كان.

ـ مم!

فصاح عندئذ أركادي إيفانوفتش، واثبًا من فراشه، حافي القدمين:

ـ هراء! وما أهمية هذا؟ سأشعل أنا الساموفار للشاي بنفسي، ولن تكون هذه أول مرة أصنع فيها هذا. أليس كذلك؟.

وأسرع أركادي إيفانوفتش إلى المطبخ، وشغل نفسه بإشعال الساموفار، في حين واصل فاسيا الكتابة. وبعد إشعال الساموفار أقدم أركادي إيفانوفتش على ارتداء كامل ثيابه، وتوجه إلى المخبز، كي يأتي بما يتقوى به فاسيا في عمله الذي سيمتد طول الليل.

وبعد ربع ساعة كان الساموفار على المائدة، وجلسا لتناول الشاي. ولكن الحديث بينهما كان راكدًا متعثرًا، لأن ذهن فاسيا لم يزل مشغولًا.

وأخيرًا قال فاسيا، كأنما يستدعي نفسه للتفكير في الحاضر:

ـ لابد لي من التوجه غدًا صباحًا لتقديم واجب التهنئة والإحترام، بمناسبة عيد رأس السنة....

ـ لا حاجة بك للذهاب إطلاقًا.

فقال فاسيا:

ـ كلا يا صديقي العتيق، بل لابد لي من هذا.

- لا تحمل همًا. ففي وسعي أن أكتب إسمك في سجلات الزيارة للتهنئة في كل مكان. فلماذا تذهب أنت شخصيًا؟.. بل الأفضل أن تفرغ أنت لعملك غدًا. وقد قلت لك آنفًا أنك يجب أن تجلس عاكفًا على العمل حتى الساعة الخامسة صباحًا تقريبًا وبعدها يجب أن تنام قليلًا، وتصور منظرك لو أنك خرجت من غير أن أنام. وفي الساعة الثامنة بالضبط سأقوم بإيقاظك.

فقال فاسيا، في تردد:

- وهل سيكون من اللائق أن توقع أنت بإسمي؟

- ولم لا. الجميع يصنعون هذا.

- ولكني خائف حقًا!

- ومم تخاف؟ ماذا يخيفك بالضبط؟

- الأمر لا أهمية له فيما يتعلق بالجميع، ما عدا يوليان مستاكوفتش، فهو مخدومي وولي نعمتي يا أركاشا! فماذا عساه يقول إذا ما لا حظ أن اسمي مكتوبًا في سجل زياراته بخط غير خطي.

- إذا ما لاحظ؟ يا لك من فتى (نكتة) يا فاسيا.

وكيف عساه يلاحظ ذلك من فضلك؟ ألست تعلم أني أعرف كيف أوقع بإسمك، بنفس طريقة توقيعك؟ إني وأيم الله أتقن هذا. فعلى رسلك يا صاح، ولن يستطيع أحد أن يكتشف الفرق!

ولم يقل فاسيا شيئًا، وأسرع في تناول شايه... ثم هز رأسه في إرتياب شديد، وقال له أركادي:

- فاسيا يا عزيزي! ليتنا تفرغ من هذا العمل.. إنك تفزعني حقًا يا فاسيا. أتدري أني لن آوي إلى فراشي الآن يا فاسيا؟ كلا. لن أذهب لأنام. أرني: هل بقى أمامك الكثير؟.

فرماه فاسيا بنظرة محملقة، جعلت قلب أركادي إيفانوفتش يغوص بين جنبيه، ولم يستطع بعدها أن يتم ما كان ينوي أن يقوله.

- فاسيا! ما خطبك؟ ما الحكاية؟ لماذا تحملق هكذا؟

- أعتقد يا أركادي أني سأذهب بنفسي لتقديم واجبات التهنئة والإحترام ليوليان مستاكوفتش غدًا صباحًا.

فحدق أركادي فيه في فرع، وقال:

- حسنًا قلت! لعل هذا أفضل، أو لابد لك منه، إسمع يا فاسيا. زد سرعتك إذن في الكتابة، ولن أسدي النصح إليك. أقسم لك على هذا. وتذكر أن يوليان كثيرًا ما قال لك أن أحب ما يحبه في خطك أنه مقروء في يسر. وسكوروبليوخيم وحده -كما تعلم- هو الذي يريد منك خطًا مفصلًا مميزًا جميلًا فوق هذا كله، كأنه كراسة مشق الخط، كي يتسنى له أن يختلس هذه الأوراق من الديوان بعدئذ ويأخذها لأولاده في البيت كي يتدربوا بمحاكاتها على جودة الخط، كأنما يعجزه أن يشتري لهم من جيبه الخاص كراسة مشق الخط! هذا المأفون! أما يوليان مستاكوفتش فكل ما يقوله. وكل ما يطلبه هو أن يكون الخط مقروءًا في يسر! فماذا تريد أكثر من هذا حقًا يا فاسيا؟ الواقع أني لا أدري كيف أتكلم معك بعد هذا. فأنت تفزعني... وتوشك أن تقتلني بما أنت فيه من قنوط.

فقال فاسيا:

- لا بأس.. لا تهتم

ثم ارتمى إلى الوراء في كرسيه، بادي الإعياء، فارتاع أركادي وهتفه به.

- أتريد قليلًا من الماء يا فاسيا؟ فاسيا!.

فقال فاسيا، وهو يضغط على يده.

- لا تقلق يا أركاشا. أنا بخير. كل ما هناك أني شعرت بشيء من الحزن يا أركادي. ولست أعرف لهذا سببًا، إسمع! تكلم في أي موضوع آخر، ولا تذكرني بهذا الأمر...

- تمالك نفسك بحق السماء.. تمالك نفسك يا فاسيا، وتأكد أنك ستتم هذا العمل في موعده. ستتمه! وإفرض جدلًا أنك لم تتمه في موعده، فما أهمية هذا؟ إنها ليست جريمة كما تعلم!

فقال فاسيا بنظرة طافحة بالمغزى، حتى أن أركادي إيفانوفتش شعر بإرتياع، لأن فاسيا لم يكن قط في أي يوم من الأيام بمثل هذا الوجل والإضطراب.

- أركادي! لو أنني كنت وحدي كذي قبل... كلا! ليس هذا ما أردت أن أقوله. هكذا أننا دائمًا: أظل أشعر بالرغبة في الإفضاء لك بشيء ما كصديق. ولكن لماذا أزعجك؟ إن بعض الناس -كما ترى يا أركاشا- أكفاء لجلائل الأعمال، وهناك آخرون يقومون بالمهام الصغرى، من أمثالي. والآن ما يكون حالك لو أنك أردت التعبير عن عرفائك بالجميل والتقدير، فوجدت نفسك عاجزًا عن هذا كله؟.

- فاسيا.. لست أفهمك إطلاقًا.

فاستطرد فاسيا بصوت خافت، كأنما هو يتداول مع نفسه:

- لم أكن في يوم من الأيام جحودًا عاقًا، ولكن ما لم أستطع التعبير عن كل ما أشعر به، لبدا أنني جاحد حقًا يا أركادي، كافر بالنعمة، وهذا ما يقتلني الآن قتلًا.

- على رسلك! يقينًا لا يمكن أن يتوقف شعورك بعرفان الجميل والفضل على إتمامك العمل في موعده المضروب أو عدم إتمامه؟ فكر فيما تقول يا فاسيا! أهذا هو الدليل الأوحد على شعورك بالعرفان؟.

وسكت فاسيا فلم يقل بعد هذا شيئًا، ولكنه رمق أركادي فجأة بنظرة صافية، كأنما قد تبددت كل شكوكه وهمومه بتلك الحجج التي أدلى بها صديقه. بل وابتسم أيضًا، بيد أنه استأنف على الفور ما كان فيه من إطراق وتفكر.

وشعر أركادي بسرور غامر، وقد فسر هده الابتسامة بأن جميع مخاوف فاسيا قد تبددت، وخطر له أن ما استغرق فيه بعد ذلك من القلق، إنما هو لاعتزامه التفكير في إتجاه جديد.

وقال فاسيا:

- أرجوك يا أركاشا عندما تستيقظ أن تلقي عليَ نظرة، فإن العواقب خطيرة لو إنني نمت. والآن سأستقر لأعمل بجد..

وسكت برهة ثم قال:

- أركاشا

- نعم

- كلا. لا شيء.. إنما أردت فقط.. أردت..

وجلس فاسيا من غير أن يزيد كلمة واحدة، وأوى أركادي إلى فراشه. ولم يتفوه أي منهما بكلمة واحدة عن الزيارة التي قام بها إلى حي كولومنا. ولعل السبب في هذا أن كلًا منهما شعر بشيء من الذنب، لأن زيارتهما لم تكن في وقتها المناسب.وسرعان ما غرق أركادي إيفانوفتش في النوم، وهو لم يزل محزون الخاطر لأجل فاسيا.

ولدهشة أركادي الشديدة إستيقظ من نومه وقد جاوزت الساعة لتوها السابعة صباحًا.

وكان فاسيا نائمًا في كرسيه، شاحبًا بادي الإعياء، وقد احترقت الشمعة كلها، وصوت مارفا مسموع وهي تعالج إشعال السامو فار في المطبخ.

وصاح أركادي في فرع:

- فاسيا! فاسيا! متى نمت؟

فشهق فاسيا وقال:

- اللعنة! لقد غفوت في مقعدي.

وانقض على أوراقه فورًا فوجدها مرتبة، لم ينقط عليها شيء من المداد أو الشمع السائل.. وقال:

- لابد أنني غفوت في حوالي الساعة السادسة! ألا ما أشد البرد في الليل! هيا نشرب شيئًا من الشاي، ثم أواصل العمل.

فسأله أركادي إيفانوفتش:

- أتشعر الآن أنك أحسن حالًا؟

- نعم. نعم. أنا بخير. على خير ما يرام...

- عام سعيد يا فاسيا يا صديقي العتيق

- عام سعيد يا عزيزي

وتعانقا. وارتعش ذقن فاسيا، وغامت بالدمع عيناه ولاذ أركادي إيفانوفتش بالصمت، وقد شعر بالحزن والأسى، وأسرع الاثنان بتناول شايهما..

وقال فاسيا:

- إسمع يا أركادي. لقد اتخذت قراري. سأذهب إلى يوليان مستاكوفتش بنفسي.

- ولكن لن يلاحظ، كما تعلم.

- إن ضميري لا يترك لي راحة في هذا الشأن، يا فتاي

- وهل نسيت أنك إنما لأجله تجلس هنا، وتنهك نفسك إلى حد الإعياء والمرض؟ على رسلك إذن! ثم أنت تعلم أني سأذهب إلى هناك اليوم يا صاحبي أيضًا..

فسأله فاسيا:

- هناك أين؟

- إلى آل أرتمييف، لأتمنى لهم عامًا سعيدًا، بإسمنا كلينا.

- أوه يا صديقي العزيز! حسن هذا جدًا، ليكن لك ما تريد، سأبقى، هنا، فقد تبين لي الآن أنك كنت على حق، فأنا على كل حال مشغول جدًا بالعمل، ولست أضيع وقتي هنا هباءً! أنظر لحظة، فسأسطر قصاصة صغيرة تحملها معك.

- هيا. لديك متسع من الوقت. ولا حاجة بك للإسراع، فلم يزل أمامي أن أغتسل، وأحلق ذقني، وأنظف سترتي. وثق يا عزيزي فاسيا أننا سنكون سعيدين جدًا. هيا عانقني يا فاسيا!.

- أوه!

ونادى صوت من السلم، كان صوت طفل:

- هل السيد شمكوف يقطن هنا؟.

فقالت مارفا وهي تدخل الزائر:

- نعم يا عزيزي. إنه يقطن هنا.

وصاح فاسيا شمكوف، واثبًا من مقعده، ومندفعًا إلى البهو:

- من هذا؟

وما أن رأى الطفل حتى هتف:

- أهذا أنت يا باتنكا؟

وكان الطفل غلامًا في العاشرة أو نحوها، جميلًا صغيرًا، وشعره الأسود المتماوج يميس في حول وجهه، فقال لفاسيا:

- صباح الخير. يشرفني أن أتمنى لك عامًا سعيدًا يا فاسيلي بتروفتش. شقيقتي تبعث إليك بأطيب التحية، وكذلك ماما، وقد كلفتني أختي أن أقبلك نيابة عنها!

فرفع فاسيا الرسول في الهواء، وطبع قبلة طويلة معسولة نشوى على شفتيه اللتين كانتا تشبهان شفتي ليزانكا تمامًا. ثم ناول الغلام لأركادي، من غير أن يلمس الأرض وقال:

ـ قبله يا أركاشا.

فتلقفه أركادي إيفانوفتش بين ذراعيه الهائلتين بلهفة وقال:

ـ أيها الغلام العزيز! ألك في شيء من الشاي؟

ـ شكرًا لك. لقد تناولنا الشاي مبكرًا، لأننا صحونا اليوم مبكرين، وذهبنا إلى قداس الصباح. وقضت أختي ساعتين في تصفيف شعري، وتطريته بالمعاجين، وغسل وجهي، وإصلاح سروالي لأني مزقته أمس وأنا ألهو في الشارع مع ساشكا، فقد كنا نلعب معا بكرات الثلج.

ـ عظيم، عظيم، عظيم

ـ وألبستني ثيابي كي آتي وأزورك، ثم قبلتني حتى كادت قتلني، وقالت: «إذهب إلى فاسيا، وتمن له عامًا سعيدًا، وسله هل هو سعيد، وهل نام حسنًا»... وكان هناك شيء آخر طلبت مني أن أسألك عنه، آه. نعم. أسألك هل انتهيت من العمل الذي كنت.. آه. ماذا قالت بالضبط. آه. ها نحن. لقد كتبت بقية كلامها في ورقة معي.

وأخرج الغلام قصاصة من جيبه قرأ فيها:

ـ هل أتممت ذلك العمل الذي كنت قلقًا من جهته للغاية؟

ـ سأتمه! لابد! قل لها إنني سأتمه حتمًا، بشرفي

ـ نعم نعم.. و.. أوه! لقد كدت أنسى. أرسلت شقيقتي معي رسالة إليك، وهدية، وها أنا قد نسيت كل شيء عنهما!.

- يا إله السماء! يا لك من غلام عزيز.. أين هي الرسالة؟ آه. ها هي أخيرًا. أنظر ماذا كتبت لي فيها، هذه الحبيبة العزيزة! أنت تعلم أني رأيت بالأمس حافظة نقود كانت تصنعها لي بدلًا منها -مؤقتًا- خصلة من شعرها، وأما الحافظة فموعدها فيما بعد. أنظر يا أركاشا! أنظر!

ولم يكد يتماسك من فرط سعادته وهو يرى أركادي إيفانوفتش خصلة من أغنى وأحلك الشعر الأسود في العالم كله، ثم قبل تلك الخصلة بحرارة، ووضعها في جيبه صداره فوق قلبه مباشرة.

وقال أركادي إيفانوفتش بإصرار:

- فاسيا! سآمر بصنع مدلاة خصيصًا لتضعها فيها

وقال الغلام مسترسلًا:

- سنتغدى بلحم العجول المشوي، وغدًا سنأكل المخ. وسوف تصنع ماما لنا بسكويتًا، ولن نأكل اليوم عصيدة.

ثم توقف عن الكلام، وهو في حيرة كيف يختم حديثه. وصاح أركادي إيفانوفتش:

- يا له من غلام صغير جميل.. أنت أسعد البشر ولا شك يا فاسيا

- وفرغ الغلام من تناول شابه، ثم أخذ رسالة فاسيا إلى أخته، وقبلاه ألف قبلة، وإنصرف سعيدًا محبورًا!.

وقال أركادي إيفانوفتش بإرتياح:

- والآن يا صديقي العتيق، أترى كم حظك حسن؟ كل شيء على خير ما يرام، فلا تحزن، ولا تهن عزيمتك، وإستمر في العمل، وأتمه يا فاسيا، أتمه! وسأعود في نحو الساعة الثانية. سأزورهما أولًا، ثم أعرج على بيت يوليان مستاكوفتش.

- وهو كذلك. إلى اللقاء أيها الصديق. إلى اللقاء. آه لو.. ولكن لا بأس. إنطلق أنت. فقد قررت نهائيًا عدم الذهاب لدى يوليان مستاكوفتش.

- إلى اللقاء..

- انتظر دقيقة. قل لهما... قل لهما أي شيء تراه مناسبًا. وقبلها.. ثم خبرني فيما بعد بكل شيء أيها الصديق...

- إسمع. وبعدها معك؟ إن الجميع يعرفون ما هو شعورك! إن السعادة هي التي تقلق بالك! وما فيها من مفاجأة غير متوقعة. أنت ليست كالعهد بك منذ أمس. وأراك لم تفق بعد من انفعالات الأمس. والآن حسبك! وتمالك نفسك يا فاسيا يا عزيزي. وإلى الملتقى!.

* * *

وافترق الصديقان أخيرًا، وظل أركادي إيفانوفتش طيلة ذاك الصباح مشغول البال، ولا يفكر في شيء عدا فاسيا. فقد كان يعرف طبعه الضعيف السريع التأثر، وراح يقول لنفسه مغمغمًا:

- أجل، إن سعادته هي التي أزعجته هكذا، ولست مخطئًا في هذا الظن. يا إلهي! لقد أوردني موارد القنوط، بتلك المأساة التي ينسجها من التوافه! يا له من عجول حاد الطبع! لابد من إنقاذه! لابد من إنقاذه! غير مدرك أنه في أعماق سريرته قد ضخم متاعبهما العائلية الصغيرة -التي لا معنى لها في حد ذاتها- فجعل منها كارثة.

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة عندما، وصل إلى دار يوليان مستاكوفتش كي يضيف اسمه المتواضع إلى القائمة الطويلة من من الأشخاص الذين وقعوا في بهو المدخل بأسمائهم فوق ورقة تلطخت بالحبر، وغطت وجهها الكتابة، وما كان أعظم دهشته عندما أبصر توقيع فاسيا شمكوف يومض أمام عينيه، فدهش جدًا، وقال لنفسه:

- ماذا جرى له؟

وهكذا إنقلب حال أركادي إيفانوفتش من الإستبشار وعلو الهمة منذ أمد قصير، إلى الثبوط والغم عند خروجه من دار يوليان.

فها هي الكارثة توشك أن تقع، ولكن من أين؟ وأي كارثة؟

ووصل إلى حي كولومنا في حالة نفسية مكتئبة، وظل شارد الذهن في البداية، ولكن بعد محادثة مع ليزانكا شعر بارتياع حقيقي على فاسيا، وطفرت الدموع إلى عينيه عندما خرج إلى الشارع، فراح يقطع الطريق عائدًا إلى البيت بسرعة أشبه بالركض. وعلى شاطئ النيفا ألقى نفسه وجهًا لوجه مع فاسيا، الذي كان يجري أيضًا. فصاح به أركادي إيفانوفتش:

- إلى أين أنت منطلق؟

فوقف فاسيا في مكانه وكأنه ضبط متلبسًا بجريمة. وقال:

- لقد خرجت استنشق الهواء يا صديقي...

- إذن أنت لم تتمالك نفسك، وكنت ذاهبًا إلى كولومنا؟ هه؟ أوه يا فاسيا! ثم لماذا ذهبت إلى دار يوليان مسكاتوفتش؟

ولم يرد فاسيا، ثم أومأ بيده وقال:

- أركادي! لست أدري ماذا يحدث لي؟ أنا...

- هيا يا فاسيا هيا. أنا مدرك جلية المسألة إهدأ واسترد توازنك! إنك لم تزل مضطربًا منزعجًا منذ أمس! اهل السعادة صعبة الاحتمال حقًا إلى هذا الحد؟ لماذا تنزعج؟ الجميع يحبونك، وكل واحد يبذل قصارى جهده من أجلك، وعملك يتقدم، وستتمه. يقينًا ستتمه. وأنا أعلم أنك كنت تتخيل شيئًا ما، شيئًا أخرجك عن اتزانك وملأك إرتياعًا.

- كلا. ليس ثمة شيء.

- تذكر يا فاسيا، تذكر كيف كانت حالك عندما حصلت على أول منصب لك في الخدمة، فقد دفعتك السعادة إلى مضاعفة همتك، إعرابًا عن عرفانك، فكانت النتيجة أنك ظللت أسبوعًا بأسره لا تصنع شيئًا سوى إفساد عملك. وهذا ما هو حادث لك الآن.

- نعم. نعم. يا أركادي، ولكن الحال الآن مختلف. ليس الأمر هكذا إطلاقًا.

- وما وجه الاختلاف؟ لعل العمل الذي بيدك ليس عاجلًا إطلاقًا، وها أنت تقتل نفسك أسفًا عليه.

- الأمر على ما يرام. هيا بنا.

- إذن فأنت ذاهب إلى البيت لا إلى كولومنا

- نعم يا صديقي العتيق، فكيف أريهم وجهي هناك؟ قد غيرت رأيي وكل ما هناك أني لم أستطع المكث وحدي بدونك، أما الآن وأنت معي، فسوف أستقر وأنصرف للكتابة. هيا بنا!.

وسارا في صمت برهة، وأسرع فاسيا في مشيه، فسأله أركادي:

- لماذا لا توجه لي أي سؤال عنهما؟

-آه. نعم يا عزيزي أركادي. قل لي...

- أنت لست كالعهد بك أبدًا يا فاسيا إطلاقًا

فتوسل إليه فاسيا، كأنما يريد تحاشي أي إيضاحات أخرى:

- لا بأس. لا بأس. قل لي كل شيء يا أركاشا

فتنهد أركادي إيفانوفتش، وتملكته الحيرة وهو ينظر إلى فاسيا.

وأشفقت أسارير فاسيا وهو يصغي لكلام صاحبه، بل وأخذ منه واعطى في الكلام. وتغديا. وكانت السيدة العجوز قد قدمت لأركادي إيفانوفتش ملء جيوبه بسكويتًا، فسرت الغبطة إلى الصديقين وهما يأكلانه.

ووعد فاسيا أن ينام بعد الغداء، كي يتسنى له السهر طول الليل. وفعلا أوى لفراشه. وكان أركادي إيفانوفيتش قد تلقى دعوة لتناول الشاي لأي شخص لا يمكنه بحال رفض دعوته. وافترق الصديقان لهذا السبب، ووعد أركادي بالعودة في أسرع وقت ممكن، وربما كان هذا في الساعة الثامنة.

وبدت لأركادي إيفانوفتش تلك الساعات الثلاث التي قضاها بعيدًا عن الدار وكأنها ثلاث سنين. وأخيرًا إستطاع أن ينتزع نفسه وأسرع عائدًا إلى فاسيا. فوجد الحجرة مظلمة، ولم يجد فاسيا في البيت. فسأل مارفا، فقالت أنه كان يكتب طول الوقت ولم يغمض له جفن لحظة واحدة، ثم شرع يذرع الحجرة، ومنذ ساعة إندفع خارجًا، قائلًا أنه عائد بعد نصف ساعة، وقال أيضًا:

ـ وعندما يعود أركادي إيفانوفتش قولي له إني خرجت أتمشى. وأكدت أنه كرر عليها هذا القول ثلاث مرات أو أربعًا.

وفكر أركادي إيفانوفتش في الأمر قليلًا ثم هز رأسه قائلًا لنفسه:

ـ إنه الآن لدى آل أرتمييف

وبعد دقيقة وثب قائمًا، وقد استثاره أمل مفاجئ: «لابد أنه فرغ من عمله ببساطة. لابد! ولم يطق بعد ذلك صبرًا، فاندفع إلى هناك! كلا! بل كان خليقًا أن ينتظرني. سأذهب وألقي نظرة!».

وأشعل أركادي إيفانوفتش شمعة، ومشي بها إلى منضدة فاسيا، فوجده قطع شوطًا منه، ولم يبد له أن الباقي كثيرًا جدًا. وكان أركادي إيفانوفتش على وشك أن يتابع فحصه لكمية العمل، عندما دخل فاسيا فجأة، وصاح فاسيا مرتاعًا:

ـ أأنت هنا؟

ولم يجبه أركادي إيفانوفتش، وخشى أن يسأل فاسيا الذي أطرق برأسه ولم يقل شيئًا، وشرع يرتب أوراقه. وأخيرًا تلاقت نظراتهما. وكانت تطل من عيني فاسيا نظرة ضراعة وتوسل وإنكسار خاطر، بحيث ارتاع أركادي، فإرتجف قلبه وفاض بالإنفعال، فصاح وهو يندفع نحوه ويضمه بين ذراعيه:

- فاسيا. يا أخي العزيز، ماذا بك؟ ما خطبك؟ قل لي كل شيء! لست أفهمك، ولا أفهم سبب كربك. ما المسألة أيها الشهيد المسكين؟ قل لي الحقيقة كلها. لابد أن هناك شيئًا!.

وتعلق فاسيا به، ولم يستطع أن يفوه بكلمة، ووقفت أنفاسه في حلقه. فقال أركادي وهو يجوب الحجرة على نسق، ويده تتلمس كل شيء فيها، كأنه يفتش عن دواء سريع يسعف به فاسيا:

- على رسلك يا فاسيا، على رسلك! إن لم تستطع الفراغ من العمل، فماذا في ذلك؟ لست أفهمك. قل لي ماذا يعذبك؟ أنا من جهتي سوف... آه يا ربي؟ سوف أذهب وأقابل يوليان مستاكوفتش غدًا، وأطلب منه، بل أتوسل إليه أن يمنحك مهلة يومًا آخر. سأشرح له كل شيء، بحذافيره، إن كان هذا ما يسبب لك كل هذا الألم.

فصاح فاسيا، وقد أبيض وجهه فحاكى الطباشير، وكاد يغمى عليه:

- لا سمح الله

- فاسيا! فاسيا!

فأفاق فاسيا، وكانت شفتاه ترتجفان، وحاول أن يقول شيئًا، ولكنه لم يستطع إلا الضغط على يد أركادي في صمت، وتشنج. وكانت يده باردة، وأركادي واقف أمامه، وقد امتلأ قلقًا وتوجسًا.. ورفع فاسيا عينيه إليه مرة أخرى، فقال:

- يا للسماء يا فاسيا! إنك تحطم قلبي يا صديقي العزيز.

فانهمرت الدموع من عيني فاسيا، وألقى بنفسه على صدر أركادي وقال:

- لقد غششتك يا أركادي! غششتك! سامحني! سامحني! فقد خنت صداقتك!

فسأله أركادي وهو مرتاع تمامًا:

- لماذا يا فاسيا؟ ماذا يمكن أن يكون حدث؟

- هاك!..

وبإيماءة يأس، جذب فاسيا درجًا، وأخرج منه على المنضدة ست كراسات سميكة، كل منها تماثل الكراسة التي كان ينسخها.

- ما هذا؟

- هذا ما كان عليَ أن أفرغ منه بعد غد، ولم أتم منه حتى الآن ربعه! فلا تسألني كيف حدث هذا... وأنا شخصيًا يا عزيزي أركادي لست أدري ما كنت أصنعه! يخيل إليَ إني خارج من حلم! فقد أضعت هباء ثلاثة أسابيع... ظللت طولها أتردد عليها. وكان قلبي يتوجع. كنت في عذاب من الشك، وعدم اليقين من جهتها، فلم أستطع الكتابة. بل إني لم أعر الكتابة لحظة تفكير واحدة. والآن فقط، عندما أشرقت على شمس السعادة، أفقت لنفسي!

فقال له أركادي إيفانوفتش بحزم:

- فاسيا! فاسيا! سأنقذك! إني فاهم كل شيء، والمسألة ليست هزلًا. لسوف أنقذك! إصغ لي! سأذهب وأقابل يوليان ماستاكوفتش غدًا. كلا! لا تهز رأسك وإصغ لي سأقول له القصة كلها، واسمح لي أن أعالج الأمر كله بطريقتي... سأوضحه له تمامًا. وسأذهب إلى أي مدى! وسأخبره بما تعانيه من ارتياع وعذاب.

فقال فاسيا بجهد، ودمه يكاد يتجمد من الفزع:

- أتدري أنك تقتلني الآن؟

فأصفر وجه أركادي إيفانوفتش، ولكنه تمالك نفسه بسرعة وانفجر ضاحكًا وقال له:

- أهذا كل شيء؟ أهذا ما يروعك فحسب؟ فاسيا. قاسيا! ألست خجلانًا من نفسك؟ الآن إصغ لي. وأنا أعلم أني أولمك، ولكنني -كما ترى- أفهمك جيدًا، وأعرف ما تمر به من محنة. يا إله السماء! نحن نسكن معًا طوال هذه السنوات الخمس، كما تعلم. وأنت رقيق ولطيف، ولكنك ضعيف. ضعيف ضعفًا لا يغتفر! وليزانكا نفسها لاحظت هذا فعلًا. ثم أنت فضلًا عن هذا حالم، وهذا أيضًا ليس حسنًا كما تعلم. وقد يصل بك إلى الجنون يا صديقي القديم. إسمع! سأقول لك ما تتمناه. أنت تتمنى مثلًا أن يفرح يوليان مستاكوفتش فرحًا يطيش صوابه،

بل قد يقيم سهرة راقصة إبتهاجًا بقرب زواجك من ليزانكا. على رسلك! أراك تعبس! فقد تأهبت للدفاع عن يوليان مستاكوفتش عند أول كلمة نطقت بها عنه! سأدع يوليان جانبًا. فأنا أيضًا أحترمه كما تحترمه أنت، كما تعلم. ولكنك لن تقنعني بعكس هذا، أو تنهاني عن الاعتقاد بأنك تتمنى لو خلت الدنيا من النفوس الشقية لأنك مقدم على الزواج. لابد لك من الإعتراف يا صديقي القديم بأنك تتمنى لو هبطت عليَ -أنا أفضل أصدقائك- ثروة من السماء قدرها مائة ألف روبل. وتتمنى لو أن جميع الخصوم والأعداء في هذه الدنيا على رحبها سووا خصوماتهم بغير سبب إطلاقًا، وتعانقوا وسط الشارع من فرط السعادة، بل ولعلهم أيضًا يأتون جميعًا إلى مسكنك لزيارتك! آه يا صديقي! أنا لا أضحك منك، بل هذا هو الحق الصراح. وقد كشفت لي عن شيء من هذا القبيل بأساليب مختلفة منذ وقت طويل. فلأنك شخصيًا سعيد، لذا تريد لكل إنسان -أجل لكل إنسان بلا استثناء- أن يغدو سعيدًا هكذا فجأة ودفعة واحدة، لأنه مؤلم لك وعسير عليك أن تسعد وحدك! وهذا هو السبب في أنك تناضل بكل قوتك كي تكون جديرًا بسعادتك الغامرة هذه، ولعلك تريح ضميرك ببعض أعمال البسالة. ولذا أفهم جيدًا إستعدادك لتعذيب نفسك، فبسبب عرفانك - على حد تعبيرك- تراخيت في العمل... وها أنت تشعر بالأسف المرير لمجرد التفكير في أن يوليان مستاكوفتش سوف يقطب، ولعله أيضًا يغضب، عندما يرى أنك فشلت في تحقيق آماله المعقودة عليك. ويؤلمك أن تتخيل سماع التوبيخ من فم من تعده ولي نعمتك، وفي لحظة مثل هذه أيضًا! في لحظة يفيض فيها قلبك بالفرح، حتى أنك لا تدري على من تغدق عرفانك. هذه هي المسألة. أليس كذلك؟

وارتجف صوت أركادي إيفانوفتش عند قوله هذه العبارة الأخيرة، وسكت، وأخذ نفسًا عميقًا..

وكان فاسيا ينظر بهيام إلى صديقه، وقد رفعت على فمه إبتسامة، وأخذ الأمل يرتسم على أساريره، فساد أركادي إيفانوفتش للكلام، وقد زاده هذا الأمل حماسة وإلهامًا:

- إصغ لي إذن. نحن لا نريدك أن تخسر حظوتك لدى يوليان مستاكوفتش. أليس كذلك يا فتاي العزيز! أهذه هي المشكلة؟ إن كانت هذه مشكلتك...

ووثب أركادي قائمًا وإستطرد:

- فسأضحي بنفسي في سبيلك. سأذهب إلى يوليان مستاكوفتش غدًا. لا تجادلني! إنك يا فاسيا تجعل من زلتك جريمة، ويوليان مستاكوفتش رجل شهم رحيم، ثم هو ليس مثلك! بل سيسمع ما نقوله له، ثم يخرجنا من ورطتنا ويخلصنا من متاعبنا. هل إطمأننت الآن؟

فضغط فاسيا على يد أركادي، والدموع في عينيه، وقال:

- لا تنزعج يا أركادي. لا تنزعج، فالأمر قد سويَ. أنا لم أتم العمل. وما أهمية هذا؟ لم أتمه، وهذا كل ما هناك، وليس هناك ما يدعو لذهابك إليه. سأخبره بكل شيء بنفسي، وسأذهب إليه شخصيًا. فقد هدأت الآن، واستردت توازني تمامًا، ولكن أرجوك لا تذهب، وإصغ...

- فاسيا يا صديقي العزيز.. إنما كنت أكرر كلماتك لا أكثر. وأنا سعيد لأنك تمالكت نفسك وأحسنت التفكير في الأمر كله، ولكن أيا كان ما يحدث لك، أيًا كان، تذكر أني معك! أراك في كرب خشية أن أقول ليوليان مستاكوفتش شيئًا. كلا. لن أقول له شيئًا. لن أخبره بشيء؟. بل ستخبره أنت. وستذهب إليه غدًا. لا، لن تذهب غدًا، بل تبقى في البيت وتكتب... وأذهب أنا وأتشمم أخبار هذه المسالة، وهل هي عاجلة أم لا، وهل كان من الواجب إنجازها في ذلك الموعد، وما هي النتائج المترتبة على تأخرك في تسليمها. ثم أسرع بالعودة إليك.. فهمت! هناك بارقة أمل... تصور مثلًا أن المسالة غير عاجلة، فيكون أمامنا متسع. وقد لا يقول يوليان مستاكوفتش شيئًا إطلاقًا، وبهذا نكون قد أنقذنا الموقف.

فهز فاسيا رأسه بارتياب، ولكن نظرة العرفان لم تفارق عينيه المثبتتين على وجه صديقه، وقال لاهثًا:-

- كفى. كفى! أشعر بضعف شديد. أنا مجهد، ولا أريد أن أفكر في هذا الموضوع. هيا بنا نتكلم في شيء آخر، فأنا -كما ترى- لا أظنني سأكتب المزيد الآن. كل ما هناك أني سأتم صفحة أو صفحتين، كي أقف عند نقطة مناسبة. والآن، لي زمن طويل وأنا أريد أن أسألك كيف تسنى لك أن تعرفني هذه المعرفة النافذة؟

وتساقطت الدموع من عيني فاسيا على يد أركادي.

- آه يا فاسيا! ليتك تعرف كم أحبك، إذن لما سألتني هذا السؤال.

- لا لا يا أركادي. أنا لا أعرف، لأني لا أعرف لماذا أحببتني كل هذا الحب! أتدري يا أركادي أن حبك هذا كاد يقتلني؟ أتعرف تلك الأوقات التي كنت أذرف فيها الدمع، ولا سيما عندما آوي لفراشي وأفكر فيك (لأنني أفكر فيك دائمًا عندما أنام) ويعتصر قلبي الألم لأنك... لأنك أحببتني إلى هذا الحد، وليست بيدي أي وسيلة أعبر بها عن مشاعري، أشكرك بها.

فقال أركادي، متذكرًا ما حدث في الشارع في اليوم السابق، ونزف قلبه دمًا وهو يتذكره:

- أتدري إلى أي حد أنت مضطرب يا فاسيا؟

- على رسلك يا أركادي! أنت تريد مني أن أتمالك نفسي، مع أنني لم أكن سعيدًا في أي وقت، ولا هادئًا مثلما أنا الآن. إسمع. أريد أن أقول لك كل شيء، ولكني أخشى دائمًا أن أحزنك وأكربكّ فأنت دائمًا تبتئس وتصيح في وجهي، فارتاع. أنظر كيف أرتجف الآن. يخيل إليَ أني أعرف نفسي قبل الآن. يخيل إليَ أني لم أعرف نفسي قبل الآن. كلا. بل ولم أعرف كل إنسان سواي إلا أمس. كانت حاسة التقدير والتمييز عندي قاصرة. إن قلبي يا أركاري كان صلدًا في داخلي. حتى لقد خطر لي أنني لم أصنع معروفًا ولم أكن رقيقًا مع أي إنسان في الدنيا، مع أي إنسان إطلاقًا، لأني كنت عاجزًا عن هذا. بل إن منظري نفسه غير مستساغ، ومع هذا كان كل إنسان آية في الرقة معي! وأنت أولهم... وكنت أرى هذا، وما كان بوسعي إلا أراه، ولكني كنت ألوذ بالصمت، وهذا كل شيء.

- لا تسترسل يا فاسيا.. إياك!

- ولم لا يا أركاشا؟ لم لا؟ إنما أنا...

وسكت قليلًا،، وقد وجد صعوبة في الكلام من خلال دموعه:

- لقد حدثتك عن يوليان مستاكوفتش بالأمس. وأنت تعلم كما أعلم أنا تمامًا إلى أي حد هو دقيق وصارم. وقد استاء من عملك مرارًا، أما معي أنا فكان مرحًا وودودًا بالأمس، وكشف لي عن رقة قلبه التي يخفيها عن كل إنسان.

أرأيت يا فاسيا؟ هذا يدل على أنك أهل للسعادة.

- أوه يا أركاشا! لكم وددت لو تسنى لي إنجاز هذا العمل في موعده المضروب! كلا! بل سأحطم سعادتي. وقلبي يحدثني بهذا.

ولمح فاسيا النظرة الجانبية التي رمق بها أركادي إيفانوفتش أكداس العمل الموضوع على المنضدة، فاعترض قائلًا:

- كلا. ليس بسبب هذا. ليس هذا شيئًا، إنما هي كومة أوراق. نفاية! هذه مسألة منتهية. لقد ذهبت اليوم يا أركاشا إلى هنا، إلى بيتهم، ولكني لم أدخل لأني شعرت بالثبوط والأسى والمرارة.. كل ما هناك أني وقفت خارج بابهم برهة، وكانت هي تعزف على البيانو، وأصغيت للعزف..

وهبطت طبقة صوته فصار همسًا وهو يستطرد:

- أرأيت يا أركاشا.. لم أجسر على الدخول. لم تواتني الشجاعة.

- ماذا بك يا فاسيا؟ لماذا تنظر إليَ هكذا؟

- أنا لا شيء! كل ما هناك أني أشعر بإعياء، ويكاد يغشى عليَ. وساقاي تهتزان، لأني جلست أكتب طول الليل. وها هو كل شيء يتراءى أخضر اللون أمام عيني. ها هنا!

وضغط بيده على قلبه، وأغمى عليه.

وعندما أفاق فاسيا من غشيته، كان أركادي على أتم أهبة كي يتخذ إجراءات قسرية، وبدأ بمحاولة إيواء فاسيا إلى فراشه، بيد أن فاسيا رفض هذا رفضًا باتًا، فصاح، وعصر يديه، قائلًا أنه يريد أن يكتب، مصممًا على إنجاز صفحتين. وتحاشيًا لإثارته أكثر من ذلك، سمح له أركادي بكتابتهما.

وقال فاسيا وهو يستقر في كرسيه:

- إسمع. عندي أنا أيضًا فكرة، هناك أمل.

وإبتسم لأركادي، وبدأ وجهه بالفعل مشرقًا بشعاع من الرجاء:

- إصغ لي. لن آخذ كل الأوراق إليه بعد غد، بل سأكذب في شأن البقية، سأقول أنها احترقت، أو أصابها بلل، أو فقدت... أو أنني لم أفرغ منها، فلست أستطيع الكذب. وسأشرح له كل شيء، قائلًا أن الأمور هكذا كانت، وإني لم أستطع... وأحدثه عن حبي، ثم هو بعد كل شيء لم يتزوج شخصيًا إلا منذ مدة قصيرة، ولذا سيفهم. وغني عن القول أني سأعالج الموضوع بطريقة فيها إحترام، وبهدوء، وسيرى دموعي، ويتأثر بها وتحرك قلبه.

- نعم. إذهب إليه، إذهب إليه وإشرح له المسألة... ولا لزوم للبكاء إطلاقًا! ولماذا البكاء؟ الحقيقة يا فاسيا أنك روعتني أنا أيضًا.

- أجل، سأذهب. والآن دعني أكتب. دعني أكتب يا أركاشا، ولن أفعل ما يضر، سأكتب فقط.

وألقى أركادي بنفسه على الفراش، ولم يثق بفاسيا. لم يثق به إطلاقا. لأن فاسيا من الممكن أن يقدم على أي شيء. أما أن يذهب لطلب العفو والصفح، وعن أي شيء؟ ولماذا؟ وكيف؟ ليست هذه هي المسألة. بل المسألة أن فاسيا فشل في أداء واجبه، وإن فاسيا يشعر بالذنب نحو نفسه شخصيًا، وإنه كان جاحدًا غير شكور لطالع سعده، فقد سحقته سعادته وأذهلته، وبات يحس أنه غير جدير بها، ووجد ذريعة للإلحاح على نغمة عدم جدارته، وأنه لم يفق بعد من مفاجأة الأمس.

وقال أركادي في نفسه:

- هذه هي الحقيقة.. ولابد من إنقاذه. لابد من عقد المصالحة بينه وبين نفسه. فهو إنما يتغنى بقداسه الجنائزي!

وظل أركادي يفكر ويفكر، ثم قر رأيه على الذهاب إلى يوليان مستاكوفتش على الفور، متى طلع الصباح، كي يخبره بكل شيء.

أما فاسيا فكان جالسًا يكتب. ورقد أركادي إيفانوفتش وقد شعر بالإرهاق، كي يعيد التفكير في المسألة برمتها، ولكنه عندما استيقظ من رقاده، كان النهار أوشك أن يطلع، فصاح وهو ينظر إلى فاسيا الذي كان منهمكًا في الكتابة:

- يا للجحيم! أعدت للكتابة؟.

واندفع أركادي إليه، وقبض عليه بين ذراعيه، وحمله قسرًا إلى الفراش. فابتسم فاسيا، وأغمض عينيه من الإعياء، ولم يكد يستطيع الكلام، وهو يغمغم:

- كنت أنوي الذهاب إلى الفراش فعلًا. أتدري يا أركادي؟ عندي فكرة.. سأتم العمل كله، أيقظني في الساعة الثامنة.

وكانت كلماته متقطعة ممطوطة، ولم يلبث بعدها ثانية واحدة حتى استغرق في نوم عميق.

وهمس أركادي إلى مارفا التي دخلت في هذه اللحظة تحمل لهما الشاي:

- مارفا! لقد طلب مني إيقاظه بعد ساعة. ولكن لا وإياك وإيقاظه، دعيه وشأنه كي ينام عشر ساعات إن شاء. فاهمة.

- فهمت يا سيدي. فهمت.

- لا تعدي غداء، ولا تحركي شيئًا من أخشاب الوقود، ولا تحدثي أي صوت وإلا حدثت متاعب! وإن صحا وسألك عني قولي له أني ذهبت إلى المكتب. إلى الديوان. أفاهمة أنت؟

- فهمت يا سيدي. فهمت. سأتركه ينام ملء جفونه ما شاء النوم. فمالي وهذا؟ إني دائمًا أحب لسادتي أن يناموا جيدًا، وأنا شديدة العناية بممتلكات سادتي وأشيائهم أيضًا. فالفنجان الذي كسرته ذاك اليوم، ووبختني عليه يا سيدي. لم أكن أنا التي كسرته، بل القطة التي كسرته. ولست أدري كيف استطاعت هذا فقلت لها: أيتها القطة الملعونة، وطردتها.

- صه! صه!.

ودفعها أركادي إيفانوفتش دفعًا إلى المطبخ، وطلب منها مفتاحه، ثم أغلقه عليها. وبعد هذا توجه إلى الديوان. وفي طريقه إلى هناك فكر في أفضل الطرق للإتصال بيوليان مستاكوفتش، وتساءل أيكون هذا لائقًا، وأليست فيه جرأة مفرطة من جانبه.

وشعر بالتهيب عندما وصل إلى الديوان. وفي تهيب سأل عن صاحب السعادة أموجود هو، فقيل له أنه غير موجود، ولن يأتي إلى الديوان في يومه هذا.

وأراد أركادي إيفانوفتش الذهاب إلى مقر صاحب السعادة على الفور، ولكن خطر له أيضًا أنه ما دام يوليان مستاكوفتش لم يحضر إلى الديوان، فلابد أن يكون مشغولًا بأمر عاجل ملح في الدار. وهكذا بقى أركادي إيفانوفتش في الديوان.

ومرت الساعات هناك في تراخ، كأنما لا تهتم أن تنتهي. وحاول بطرق خفية متلصصة أن يجمع المعلومات عن العمل المعهود به إلى فاسيا شمكوف، ولكن ما من أحد يعرف عنه أي شيء. وكل ما يعرفونه أن يوليان مستاكوفتش كلف فاسيا شمكوف بمهمة من نوع خاص. أما ما هي هذه المهمة، فلا أحد منهم يدري فحواها.

وأخيرًا دقت الساعة دقاتها الثلاث. وإندفع أركادي إيفانوفتش يريد البيت. ولكن أحد الكتبة من زملاء الديوان إستوقفه في الردهة وأخبره أن فاسيا شمكوف كان قد جاء إلى الديوان بعده الساعة الثانية عشرة بقليل، وسأل هل أركادي إيفانوفتش موجود، وهل حضر يوليان مستاكوفتش إلى الديوان.

وما أن سمع أركادي إيفانوفتش هذا النبأ، حتى اكترى عربة واستقلها إلى مسكنه، وقد أفلت منه زمام نفسه من فرط الارتياع.

ووجد فاسيا في البيت، يذرع الحجرة في إضطراب بالغ. وما إن رأى أركادي إيفانوفتش حتى حاول أن يتمالك نفسه، ويهدأ، وسارع إلى إخفاء اضطرابه، وجلس يؤدي عمله في صمت. وبدا عليه أنه يريد أن يتحاشى أسئلة صديقه، لأنها تربكه، وقد قرر أن يحتفظ لنفسه بقرار ما قد حصل إليه، لأنه صار يرى أنه حتى الصداقة لا يمكن الركون إليها.

وأدهش هذا السلوك أركادي إيفانوفتش، واعتصر الألم والنكد فؤاده، فجلس على فراشه وفتح كتابًا حيثما أتفق، ولم تبارح عيناه صديقه المسكين.

ولكن فاسيا ظل لائذًا بالصمت، وواصل الكتابة من غير أن يرفع بصره. واستمر هذا الحال بضع ساعات، فوصل قلق أركادي بفانوفنش إلى الذروة.

وأخيرًا، في نحو الساعة العاشرة مساءً، رفع فاسيا رأسه وركز نظرة جامدة بكماء على أركادي. ولم يتحرك أركادي. ومرت دقيقتان أو ثلاث دقائق، ظل فيها فاسيا صامتًا لا يتكلم، فصاح، أركادي إيفانوفتش:

- فاسيا!

ولكن فاسيا لم يرد عليه. ومرة أخرى صاح أركادي:

- فاسيا!

ووثب أركادي من فراشه صائحًا وهو يتجه إليه.

- ماذا بك يا فاسيا. ما خطبك؟

فرفع فاسيا رأسه وركز عليه عين نظرته الحجرية البكماء. فقال أركادي إيفانوفتش في نفسه وهو يرتجف هلعًا:

- لقد أصيب بالشلل!

وتناول إبريق الماء، ورفع فاسيا فأضجعه على كرسيه، وصب شيئًا من الماء على رأسه، وبلل له صدغيه، وفرك يديه بيديه، فأفاق فاسيا واسترد رشده، وصاح أركادي إيفانوفتش وقد عجز عن إحتجاز دموعه:

- فاسيا! فاسيا! لا تحطم حياتك! تذكر! تذكر!

ثم عجز عن إتمام كلامه، وإكتفى بضمه بين ذراعيه. وعبرت انفعالات أليمة بوجه فاسيا، وراح يفرك جبينه ويدلكه، ويقبض على رأسه بيديه، كأنه يخشى أن ينفجر.

وأخيرًا نطق فقال:

- لست أدري ماذا أصابني؟ أحسبني قد أجهدت نفسي أكثر مما ينبغي. على رسلك يا أركادي! لا تجزع هكذا!

ونظر إلى أركادي بعينين حزينتين مجهدتين، وقال:

- كلا! لا تجزع هكذا.. ليس ثمة داع للقلق! على رسلك إذن!

فصاح أركادي إيفانوفتش، وقد انفطر قلبه:

- فاسيا! أأنت الذي يسري عني! هيا أرقد يا فاسيا، وحاول أن تنام قليلًا. هه، لا تعذب نفسك بغير مقتض، وستستأنف عملك ثانية فيما بعد.

وظل فاسيا يقول:

نعم نعم، كما تشاء يا صاحبي. سأرقد. وهو كذلك، ها أنت ترى أنني كنت أوشك أن أتم العمل، ولكني غيرت رأيي الآن. أجل...

وجذبه، بل جره أركادي إلى الفراش جدًا. وقال له بحزم:

- اسمع يا فاسيا! لابد لنا من تسوية هذه المسألة مرة واحدة، وبصفة نهائية! قل لي الآن ماذا يزعج تفكيرك ويقلق ذهنك؟

فقال فاسيا:

- أوه!

وأومأ بيده في وهن، وأشاح بوجهه عنه.

- على رسلك يا فاسيا! على رسلك لابد أن تخبرني.. أنا لا أريد أن أكون قاتلك، ولن أعتصم بالصمت بعد الآن. وإعلم أنه لن يتسنى لك أن تخلد للنوم إلا إذا أخبرتني أولًا. أنا موقن بهذا.

فقال فاسيا بغموض:

- كما تشاء. كما تشاء.

فقال أركادي إيفانوفتش في نفسه:

- لقد أذعن. لقد أذعن

وقال لفاسيا بصوت عال:

- خذ نصيحتي يا فاسيا! تذكر ما قلته لك. سأنقذك غدًا! سأبت في مصيرك بما يقر كل شيء في نصابه غدا! ولكن ما هذا الذي أقول؟ مصيرك؟ لقد أفزعتني يا فاسيا فزعًا بالغًا، حتى صرت أتكلم على نحو ما تتكلم أنت! مصيرك حقًا! هذا هراء وهذيان! فلا حاجة بك إلى فقدان الحظوة عند يوليان مستاكوفتش، ولا إلى مودته وإعزازه -على حد تعبيرك- هذه هي الحقيقة. لن تقصد شيئًا من هذا كله. وسترى. سترى إنني..

وكان أركادي إيفانوفتش خليقًا أن يسترسل في كلامه، لولا أن فاسيا أوقفه، فقد نهض في فراشه وإحتضنه وقبله، وقال له بتوسل:

- لا. لا. لا. تسترسل أكثر من هذا.

وأدار وجهه إلى الحائط مرة أخرى. فقال أركادي في نفسه:

يا إلهي! ما الخبر؟ إنه ضائع لا محالة تمامًا.. ما الذي قرر أن يصنعه؟ سيقتل نفسه هكذا!

ونظر أركادي إيفانوفتش إليه في قنوط، وفكر في سريرته قائلًا:

- سيخر مريضًا، وقد يكون هذا أفضل له.. فسينقضي قلقه مع انقضاء مرضه، وفي هذه الأثناء تكون المسألة برمتها قد سويت على أحسن وجه ممكن. ولكن ما هذا؟ إني أهذي! يا إله السماء رحمتك!.

وفي هذه الأثناء بدا أن فاسيا شمكوف راح في سنة من النوم، وأفرخ في روح أركادي إيفانوفتش وقال لنفسه:

- هذه علامة طيبة

وقرر أن يجلس ساهرًا بجوار فراش فاسيا طول الليل. وكان فاسيا لا يستقر في رقاده على حال، بل يتقلب، وينتفض في عصبية بالغة، ويفتح عينيه لحظة. وأخيرًا غلبه التعب على أمره، وبدا أنه غرق في النوم.

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحًا، فغفا أركادي إيفانوفتش في مقعده، وقد اتكأ بكوعه على المنضدة.

وكان نومه قلقًا وغريبًا، إذ خيل إليه أنه ليس نائمًا على الإطلاق، وإن فاسيا لم يزل راقدًا في فراشه كذي قبل. ولكن ويا للعجب خيل إليه أن فاسيا يتظاهر بالنوم، ويخدعه في واقع الأمر، وها هو ينهض من رقاده بحذر، ويرقبه بعينين ضاقت فرجتاهما، ثم وها هو يتسلل متلصصًا إلى المنضدة التي عليها أوراقه، فاعتصر قلب أركادي إيفانوفتش ألم مبرح، وجرحه وأهمه وأكربه أن يرى فاسيا كف عن الثقة به، وأخذ يخفي عنه في سريرته أشياء... وحاول أن يناديه، وأن يضمه بين ذراعيه ويحمله حملًا ليعود به إلى فراشه، ولكن فاسيا صاح به أن ما يحمله إلى فراشه إنما هو جثته الميتة. فتصبب جبين أركادي إيفانوفتش بحبات من العرق البارد، وأخذ قلبه يدق دقًا عنيفًا. وفتح عينيه وقد صحا تمام الصحو. وإذا به يرى فاسيا جالسًا إلى منضدته.

ولم يصدق أركادي حواسه، فنظر إلى الفراش، ولم يجد فاسيا هناك. فوثب أركادي واقفًا على قدميه فزعًا، وهو لم يزل واقعًا تحت تأثير حلمه.

ولم يتحرك فاسيا، بل ظل يواصل الكتابة وأفزع أركادي غاية الفزع أن يرى قلم فاسيا خاليًا من الحبر، وهو يجريه بسرعة على صفحة الورق، وكانت الصفحات التي يفرغ منها ويقلبها نظيفة خالية من الكتابة تمامًا.. وهو منهمك في ملء هذه الصفحات بكل سرعة، وكأنه يؤدي واجبه بكفاءة تامة ونجاح.

وفكر أركادي إيفانوفتش قائلًا لنفسه، وهيكله الهائل يهتز كله جزعًا:

- كلا! ليس الشلل ما به!

وصاح ممسكًا بكتف فاسيا:

- فاسيا! فاسيا! كلمني!

ولكن فاسيا ظل صامتًا، وواصل الكتابة بقلمه الجاف من كل أثر للحبر. ثم غمغم من غير أن ينظر إلى أركادي.

- أخيرًا صرت أكتب أسرع من ذي قبل.

فقبض أركادي على يد فاسيا، وانتزع منها القلم.وتأوه فاسيا، ونزل يده، ورفع بصره إلى أركادي، ثم مر بيده على جبينه بحركة تدل على الحيرة والارتباك، كأنما يريد أن يبعد عن نفسه عبئًا ثقيلًا كان يبهظ كيانه كله، ثم هبط برأسه فوق صدره، في بطء وشرود...

وصاح أركادي إيفانوفتش في قنوط:

- فاسيا.. فاسيا.. فاسيا

ومرت دقيقة قبل أن ينظر إليه فاسيا، وقد إمتلأت عيناه الواسعتان الزرقاوان بالدموع، ونم محياه الشاحب اللطيف على قلق لا حد له.

وهمس يقول شيئًا ما، فصاح أركادي، وهو ينحني فوقه:

- ماذا؟ ماذا قلت؟

فكرر همسه بصوت مسموع:

- ما هذا الذي صنعت؟ وماذا صنعت كي أستحقه؟ لماذا؟ ماذا جنيت كي أستحق هذا كله؟

فصاح أركادي، وهو يعصر يديه في يأس:

- فاسيا! كلمني! قل لي ما الذي يروعك يا فاسيا؟ ما خطبك؟

فقال فاسيا، ناظرًا في عيني أركادي مباشرة:

- لماذا يرسلونني إلى الجيش؟ لماذا؟ ماذا جنيت؟

وقف شعر أركادي! ورفض أن يصدق أذنيه. كان مذهولًا تمامًا. ولكنه بعد لحظة واحدة أفاق، وقال لنفسه وقد سحب وجهه، وأخذت شفتاه ترتجفان:

- ليس هذا شيئًا ذا بال! وسيزول وشيكًا.

وارتدى ثيابه بسرعة، فإندفع أركادي نحوه، واحتضنه، وكأنه أم يريدون انتزاع وليدها منها.

وقال فاسيا:

- أركادي. أركادي. لا تخبر أحدًا. إنها بليتي وحدي. أتسمعني.. دعني أقاسيها وحدي!

- ما هذا الذي تقول يا فاسيا؟ تمالك نفسك، وفكر فيما تقول.

فتنهد فاسيا، وإنهمرت الدموع تتسابق على خديه، وغمغم في صوت معذب يعتصر الفؤاد:

- ولكن لماذا يقتلونها؟ لأي سبب؟ ما ذنبها؟ إنها جريمتي أنا!

وسكت لحظة، ثم أردف وهو يهز رأسه:

- وداعا يا حبيبتي! وداعًا يا حبيبتي.

فارتعدت فرائص أركادي، وأجفل، واستدار ليندفع إلى الخارج في طلب الطبيب. وصاح فاسيا وقد نبهته حركة أركادي المفاجئة:

وسكت وراح يزق أركادي بنظرة ذعر وتوجس. فصاح أركادي إيفانوفتش، وقد طاش صوابه أيضًا:

- لا تتبعني يا فاسيا! بحق السماء لا تتبعني! إنتظرني هنا، ولن أغيب إلا دقيقة واحدة، وسأعود اليك حالًا!

واختطف قبعته وأسرع يلتمس الطبيب. وجلس فاسيا في إذعان. كان خانعا هادئًا، وعيناه وحدهما هما اللتان تومضان بعزم بائس.

وتذكر أركادي مدية مفتوحة كانت على المنضدة، فارتد عائدًا، ووضعها في جيبه، ونظر إلى صديقه المسكين للمرة الأخيرة، واندفع إلى خارج المسكن.

وكانت الساعة قد جاوزت السابعة، والشمس بددت منذ وقت طويل الظلام الذي كان مخيمًا على الحجرة.

ولم يستطع أن يجد طبيبًا، وظل يجري هنا وهناك زهاء ساعة بطولها، وكل الأطباء الذين يعرف عناوينهم، وسأل البوابين عنهم، اتضح له أنهم غادروا مساكنهم للقيام بزياراتهم الصباحية، أو لقضاء أمر من أمورهم. ولم يجد في النهاية إلا طبيبًا واحدًا كان يستقبل المرضى في بيته في تلك الساعة، ولكنه سأل أولًا الخادم الذي حمل إليه إسم أركادي إيفانوفتش سؤالًا مفصلًا عمن أرسله، ولماذا جاءه؟ وما هي شكواه؟ بل وسأل عن هيئة هذا الزائر. وكانت النتيجة أنه رفض استقباله، فهو يتأهب للخروج بسرعة لعيادة مريض، قائلًا إن المرضى من هذا القبيل ينبغي أن يحملوا إلى المستشفى.

ذهل أركادي إيفانوفتش، فلم يكن يتوقع إطلاقًا أن تنتهي جهوده هذه النهاية، فنفض يده من كل شيء، ويئس من الأطباء جميعًا، وأسرع عائدًا إلى بيته، وقد بلغ منه القلق على فاسيا كل مبلغ. واندفع إلى داخل المسكن. ووجد مارفا خلية البال تمامًا، منصرفة إلى كنس الأرض، وتقطيع أخشاب الوقود، والإستعداد لإشعال الموقد، فجرى إلى الحجرة، ولم يجد فيها أثرًا لفاسيا. كان قد خرج.

وتساءل أركادي:

ـ أين هو؟ أين من الممكن أن يكون المسكين قد ذهب؟.

وتجمد دمه خوفًا عليه. وسأل مارفا، ولم تكن تعرف شيئًا، ولا رأت شيئًا. بل ولم تكن سمعته وهو خارج... بارك الله فيه، فإندفع أركادي إلى كولومنا، والله وحده أعلم لماذا خطر له أن يكون فاسيا ذهب إلى هناك؟

وكانت الساعة تجاوزت التاسعة عندما وصل إلى حي كولومنا.. وأدهشهما أن ترياه، ولكنهما لم تكونا تعرفان شيئًا على الإطلاق. ووقف أمامهما مذعورًا مكروبًا يسألهما أين فاسيا؟ وخارت ساقا العجوز، وتهاوت على الأريكة، وطلبت إليه ليزانكا وهي ترتجف ذعرًا أن يخبرها ماذا حدث؟

وماذا كان لديه أن يقوله؟ وضللهما بحكاية اخترعها من وحي اللحظة، ولم تصدقاها طبعًا، ولكنه أسرع بمغادرتهما، تاركًا إياهما حائرتين مذهولتين. وخف إلى الديوان كي يصل إلى الديوان ويبلغهم هناك كي يتخذوا التدابير بأسرع ما يمكن. خطر له أن فاسيا ربما كان لدى يوليان مستاكوفتش. وكان هذا محتملًا جدًا، بل إن هذا خطر له قبل أن يفكر في آل أرتمييت. ولذا أمر الحوذي بالتوقف عند دار صاحب السعادة، لكنه لم يلبث أن أمر الحوذي بمواصلة السير، وقرر أن يعرف أولًا أهناك أي معلومات في الديوان، فإذا لم يجسد فاسيا بالديوان توجه إلى يوليان مستاكوفتش، وتذرع بأنه يقدم إليه تقريرًا عن فاسيا. فلابد لأحد ما أن يقدم التقرير على كل حال!

ومنذ اللحظة التي دخل فيها بهو الديوان، حدق به الشباب من زملائه، ولا سيما أنداده في الدرجة، وانهالوا عليه بالأسئلة عن فاسيا. وكانوا جميعًا يتكلمون في صوت واحد، قائلين أن فاسيا جن، وفقد عقله، وأن جنونه ينصب على أنهم سيرسلونه إلى الجيش لأنه قصر في واجباته.

وراح يرد عليهم أركادي إيفانوفتش يمنة ويسرة. أو لعل الأولى أن أقول أنه لم يرد عليهم ردًا مجردًا، وانفلت منهم إلى الغرف الداخلية. وفي طريقه إلى هناك عرف أن فاسيا في حضرة يوليان مستاكوفتش، وأن الجميع قد دخلوا إلى هناك، وأن «هسبر إيفانوفتش» هناك أيضًا.. وجعله هذا الخبر يجمد في مكانه.

وسأله أحد رؤسائه أين هو ذاهب، وماذا يريد؟ ومن غير أن يتبين وجه متحدثه غمغم بشيء عن فاسيا، ثم مضى لتوه إلى الحجرة مباشرة. واستطاع أن يسمع صوت يوليان مستاكوفتش من داخلها.

وعند الباب سأله شخص.

- أين أنت ذاهب؟

وكاد أركادي إيفانوفتش يفقد شجاعته عندئذ، وهم بالرجوع، عندما لمح فاسيا المسكين من فرجة الباب، وكان نصف مفتوح، فدفع الباب ففتحه على سعته، ودخل.

وكانت الحيرة مخيمة على الحجرة، لأن يوليان مستاكوفتش كان في حالة أسى شديد، وكان كبار الموظفين واقفين بجواره مباشرة، يتناقشون في الأمر، ولا يصلون فيه إلى قرار إطلاقًا. أما فاسيا فكان واقفًا، وغاص قلب أركادي عندما نظر إليه. فقد كان واقفًا وقفة الإنتباه في تخشب، ووجهه شاحب، ورأسه مرفوع إلى أعلى، ونظره مثبت في عيني مستاكوفتش.

ولوحظ دخول أركادي إيفانوفتش نفيديفتش على الفور، ونبه أحد من يعرفون أن الإثنين يقيمان معًا صاحب السعادة إلى حضوره. واستدعي أركادي للإقتراب منه، ونظر إليه أركادي وقد إستعد للإجابة عن كل الأسئلة التي توجه إليه. ولكن عندما رأى كل تلك الشفقة المرتسمة على محياه، أخذ أركادي ينتحب كالأطفال.

بل فعل ما هو أكثر من هذا. تناول يد رئيسه ورفعها إلى عينيه وأغرقها بدموعه، بحيث إضطر يوليان مستاكوفتش إلى جذبها بعيدًا في سرعة، ولوح بها قائلًا:

- حسبك أيها الشاب. حسبك أراك طيب القلب.

وانتحب أركادي، وراح يرمق الحاضرين بنظرات ضارعة، وآمن أن الجميع يكنون لفاسيا المسكين حبًا أخويًا، وإنهم جميعًا يتعذبون لأجله، ويبكون رقة له. وسأله يوليان مستاكوفتش.

- ولكن لماذا حدث له هذا؟ لماذا فقد عقله؟

فكان كل ما أجابه به:

- من فرط عرفان الجميل؟

وحيرت الجميع هذه الإجابة، والواقع أنها بدت لهم غريبة إلى درجة لا تصدق. إذ كيف يمكن أن يفقد إمرؤ عقله من فرط عرفان الجميل؟.

وحاول أركادي أن يوضح ذلك قدر إستطاعته، وعندئذ قال يوليان مستاكوفتش:

- يا إلهي! ما أجدره بالرثاء! فالعمل الذي كان موكولًا إليه لم يكن عاجلًا جدًا ولا هامًا. ها هي حياة تحطمت بلا سبب إطلاقًا. خذوه خارجًا.

وإلتفت يوليان مستاكوفتش إلى أركادي إيفانوفتش مرة أخرى وسأله أن يعيد إليه القصة كلها، وقال له مشيرًا إلى فاسيا:

- أنه يطلب منا ألا نخبر فتاة معينة بأمره. من هي؟ أهي خطيبته؟

وشرع أركادي إيفانوفتش يشرح الموقف كله. وفي الوقت نفسه كان فاسيا يبدو مشغول الخاطر بفكرة ما، وبدا أنه يبذل مجهودًا هائلًا لتذكر شيء هام وجوهري، كان يريد قوله في هذه اللحظة. وكان بين الحين والحين ينظر فيما حوله نظرة تدل على المعاناة الشديدة، وكأنه يأمل أن يذكره أحد بما نسيه.

واستقرت عيناه على أركادي إيفانوفتش، وفجأة ومضت في نظرته بارقة رجاء، فتقدم ثلاث خطوات، بادئًا بقدمه اليسرى، في أتم رشاقة ونظام استطاعهما في ظرفه هذا، ثم دق بكعب قدمه اليسرى الأرض، وكأنه جندي يتقدم ليقف «إنتباه» أمام ضابطه الذي استدعاه.

وجعل كل واحد من الحاضرين يرقب ويترقب ما سيكون بعد هذا، ونطق فاسيا في تلعثم بالكلمات الآتية:

- بي عيب جسماني يا صاحب السعادة. وأنا قصير وضعيف، ولست لائقًا للخدمة العسكرية.

وفي هذه اللحظة شعر كل من في الحجرة بقلبه يعتصر. وحتى يوليان مستاكوفتش -برغم حزمه كله- تأثر ودمعت عيناه، وقال وهو يلوح بيده.

- خذوه خارجًا

وقال فاسيا بصوت خافت:

- أمرني بالإنصراف!

ودار بشدة على عقبيه، وغادر الحجرة بمشيته العسكرية. واندفع وراءه جميع السادة الذين شعروا بالاهتمام به، وذهب أركادي إيفانوفتش وراءهم. وأجلسوا فاسيا في قاعة الانتظار، إلى أن تأتي النقالة وتحمله إلى المستشفى.

وجلس صامتًا، وقد بدا مشغول البال إلى حد كبير، وراح يهز رأسه لكل من يتعرف عليهم، كأنه يلقي عليهم تحية الوداع. وظل يرمق الباب، متأهبًا لسماع كلمة تأمره بالانطلاق والتفت حوله حلقة كبيرة أخذت تضيق حوله، وكلهم يهزون رءوسهم ويتحسرون لما أصابه.

وكان الكثيرون متعجبين لقصة فاسيا، التي صارت حديثًا مشاعًا بينهم. وراح بعضهم يناقشونها، وراح غيرهم يثنون على فاسيا ويرثون لحاله، فقد كان شابًا متواضعًا وهادئًا جدًا، كما قالوا، ويبشر بمستقل حسن. ولكم حاول الدراسة، وقال بعضهم أنه كان ذا عقل متطلع إلى المعرفة، وحاول بجد أن يرفع مستواه ويحسنه. بل قال أحدهم:

- لقد استطاع أن يرتفع فوق وضعه الهابط في الحياة، بفضل مجهوده الخاص.

وذكر الجميع تعلق يوليان مستاكوفتش به. وتطوع بعضهم بتفسير لماذا سيطر على عقل فاسيا وأخل به خوفه من أن يرسلوه إلى الجيش؟ وقالوا أنه إلى وقت قريب كان من الطائفة التي يمكن تجنيدها للخدمة العسكرية، وإنه أرتقى فوق هذا المستوى بفضل وساطة يوليان مستاكوفتش الذي كان يقدر أحسن التقدير مواهبه وطاعته ووداعته النادرة.

وقصارى القول، إن الآراء والتعليقات كانت كثيرة ومتباينة. وكان من بين رفاق فاسيا رجل قصير القامة جدًا، من أبرز من أذهلهم ما أصابه. ولم يكن صغير السن جدًا، فلابد أنه كان في الثلاثين من عمره تقريبًا. إلا أنه كان شاحب الوجه كانه صفحة من الورق، وكان جسمه كله يرتعد، يفتر عن إبتسامة غريبة، ولعل ذلك لأن المشاهد الرهيبة المفزعة قد تبدو مروعة وذات سحر أخاذ في الوقت نفسه لمن يشاهدها ولا يكتوي بها. فظل هذا الرجل القصير يجري هنا وهناك حول حلقة الرجال المحدقة بفاسيا، ويشب على قدميه، ويتعلق بأزرار سترات هذا وذاك ممن له حق التعلق بستراتهم، ويكرر قوله أنه يعرف السبب في هذا كله، وأنه ليس سببًا تافهًا على الإطلاق، بل سبب خطير جدًا. وأنه لابد من عمل شيء. ثم يشب على أصابع قدميه ثانية ويهمس في أذن سامعه، ويهز رأسه مرة أو مرتين، ثم يواصل جريه.

وأخيرًا انتهى كل شيء. فقد وصل طبيب وممرض من المستشفى، واتجها إلى فاسيا وقالا له أن وقت الذهاب قد حان. فوثب قائمًا بسرعة، وتبعهما إلى الخارج. وطفق ينظر وراءه من فوق كتفه، وهو يفتش عن شخص ما بعينيه:

وصاح أركادي إيفانوفتش وهو ينتحب:

- فاسيا.. فاسيا

فوقف فاسيا عندئذ، واستطاع أركادي أن يشق له طريقًا إليه، وإندفع كل منهما إلى أحضان الآخر للمرة الأخيرة، وتشبث كل منهما بالآخر تشبثًا شديدًا. وكان لهذا وقع محزن على كل من شاهده. وراحت الدموع تنهمر من عينيهما؟ لماذا وقعت هذه المصيبة؟ لماذا لم يفهم كل منهما الآخر؟

وأخيرًا دس فاسيا شمكوف لفافة صغيرة في يد أركادي إيفانوفتش وقال له:

- هاك! خذ هذه. فسوف يأخذونها مني. وجئني بها في وقت آخر. أرجوك أن تحتفظ لي بها...

ولم يتم فاسيا كلامه، لأن شخصًا ناداه، قائلًا له وداعًا. وكان في محياه يأس واضح.

وأخيرًا وضعوه في عربة المستشفى، وانطلقوا به. وبسرعة فتم أركادي اللفافة، فإذا بها خصلة شعر ليزانكا الأسود الفاحم، التي لم تفارق فاسيا أبدًا. وطفرت دموع حارقة من عيني أركاديا، وغمغم.

- يا لليزانكا المسكينة!

وما إن إنتهت ساعات عمله في الديوان، حتى توجه إلى حي كولومنا، أما ما حدث هناك فيجل عن الوصف. فحتى بتيا، بتيا الصغير، الذي لم يفهم تمامًا ما حدث لفاسيا الطيب الحنون، ذهب إلى الركن، وغطى وجهه بيديه وانتحب من أعماق قلبه العزيز.

وكاد الغسق يخيم عندما أفل أركادي راجعًا إلى البيت، ولما اقترب من شاطئ النيفا وقف دقيقة ونظر إلى النهر من تحته، ورنا إلى الأفق البعيد الذي يغشاه الضباب والصقيع، وقد توهج بآخر أشعة الشمس القانية كالدم وهي جائحة إلى المغيب.

ها هو الليل يخيم على المدينة، والنهر العريض تتلألأ حواشيه التي تجمعت فيها الثلوج، في آخر شعاع للمغيب. ولابد أن درجة الحرارة هبطت إلى عشرين تحت الصفر، والبخار المتجمد يتصاعد من الجياد التي تجر العربات، ومن المشاة المجدين في سيرهم. والهواء المخلخل ترن فيه أهون الأصوات، وأعمدة الدخان تتصاعد في حلقات عملاقة من جميع سقوف الأبنية على ضفتي النهر، تشق طريقها نحو السماء، ملتفة ومنبسطة، وكأن مدينة جديدة قد ارتسمت في الهواء، فوق الأبنية القديمة.

فقد بدت في ساعة الغروب هذه كل الدنيا بكل من فيها، الأقوياء منهم والضعفى، وبكل أبنيتها - ملاجئ فقراء معوزين كانت أم قصورًا مذهبة- وكأنها وهم سحري، أو حلم لا يلبث أن يختفي كالبخار في أغوار السماء القاتمة الزرقة.

أفكار غريبة طافت برأس صديق فاسيا المحزون. وأجفل، وغمرت قلبه دفعة من الدماء من تأثير انفعال شديد لم يعهده من قبل. وخيل إليه أنه الآن فقط يستطيع أن يفهم أبعاد الكارثة كلها، وما الذي أطاح بعقل فاسيا المسكين الذي لم يستطع أن يتحمل هجمة السعادة عليه. وارتجفت شفتاه، ولمعت عيناه، وشحب وجهه. وفي هذه اللحظة خيل إليه أنه اخترق الحجب، إلى أفق جديد.

واستولت عليه الكآبة، وتبدد كل مرحه. وأبغض مسكنه القديم وغادره إلى مسكن آخر. ولم يستطع التوجه إلى كولومنا، ولا نازعته نفسه أن يذهب إلى هناك.

وبعد عامين قابل ليزانكا في الكنيسة، وكانت قد تزوجت، ومن ورائها كانت تمشي مربية تحمل طفلًا. وتحدثا، وتجنب كل منهما أطول مدة ممكنة الإشارة إلى الماضي.

وأخبرته ليزا أنها سعيدة، وليست فقيرة، وأن زوجها رجل طيب، وهي تحبه. ولكن فجأة، في وسط الكلام، أغرورقت عيناها بالدموع، ووهن صوتها، وأشاحت بوجهها، وخرت على ركبتيها في بهو أعمدة الكنيسة، كي تخفي أساها عن الدنيا.

الفهرس

مقدمة.................................. .... ٤
الليالي البيضاء ٤
القلب الواهن.. ٥
الليالي البيضاء ٥
الليلة الأولى... ٦
الليلة الثانية ٢٠
قصة نستنكا.. ٣٧
الليلة الثالثة.. ٥٢
الليلة الرابعة... ٦١
الصباح... ٧٣
القلب الواهن.. ٧٧
الفهرس................................. .... ١٤٤